



الكتاب الأول

١٩ يوليو - ١٨ أكتوبر سنة ١٩٢٦

obeikandi.com

بورسعيد - باريس

كانت معدات سفرنا لرحلة سنة ١٩٢٦ تامة يوم ١٨ من يوليو ينقصها إلا أن نعرف بالدقة الساعة التي تبحر فيها الباخرة « مونجوليا » ميناء بورسعيد . ومع ترددى على « كوك » لأقف منه على الموعد المضبوط فقد كان آخر ما اتصل بعلمنا أن آخر قطار يدرك الباخرة هو الذى يغادر القاهرة فى الساعة الحادية عشرة من صباح ١٩ من يوليو . وخيل إلينا أن هذا معناه أن الباخرة تتحرك بعد ساعة أونها من وصول القطار إلى بورسعيد ، ففضلنا أن نسافر بقطار الصباح الباكر . وجاءت الساعة التى يصل فيها القطار الذى أشار « كوك » إليه ولم تكن الباخرة قد وصلت الميناء ولا كان أحد يعرف عن موعد وصولها بالدقة خبراً ، بل قيل لنا إنها قد لا تصل قبل صباح اليوم التالى . فأثار هذا التأخير فى نفسى حالة عصبية أن كنت أعتبر كل ساعة أكسبها أدنى إلى تحقيق الغرض الذى من أجله نسافر ، كما كنت أشعر بشئ من الطيرة ألا يكون كل شئ فى السفر كما أريده أن يكون .

وفى الساعة الثامنة مساء قيل إن الباخرة تصل بعد ساعتين ، وإن أنوارها ظهرت بالفعل على قناة السويس . وأقلتنا إليها الزوارق ؛ إذ ليس فى بورسعيد « أرصفة » ترسو عليها السفن . وسألنا الحمال عن متاعنا فإذا به مبعر فوق ظهر السفينة ، فجمعناه على عجل من هنا ومن هناك ، وشكرت للذين ودعونا متمنين لنا سلامة السفر ، وأويت إلى مخدعى متعباً منهوكة بعد أن قضيت النهار كله منذ الصباح الباكر وحين سفرنا من القاهرة أتقلب بين مشاعر وإحساسات ليست كلها مما تبتهج له النفس . فلما تنفس الصبح إذا الباخرة تجرى بنا فوق موج بسم تزجيه ريح رخاء ، وإذا سطح السفينة الفسيح تتلطف أشعة الشمس عليه بما ينعش النفس من نسيم البحر الجميل . وكانت حياة السفينة وغياب البحر المحيط بها هى الانتقال الأول من بيئة الذكرى المريرة ، لولا ما كان من سفر وحيدنا من قبل معنا على البحر بين موانئ مصر والشام ، ولولا ما تدعو آفاق البحر النفس إليه من الاستجمام والتفكير والتذكر .

على أن مافى حياة السفينة من جديد ، وما تعود المسافرون على البحر خلقه من أنواع اللهو والمتعة ، يهون من غضاضة ساعات التفكير والذكرى ، ويخلق أمامنا عالماً جديداً يستغرق

من تطلعنا بمقدار ما يستغرق السفر على البحر بين مصر وأوروبا من أيام قلائل . والبواخر الإنكليزية أشد من غيرها إثارة للتطلع . فأنت في سريرك ما تزال تغط في نومك ولا تنتظر البتة من يزعجك عن فراشك ، فإذا باب القمرة يدق حتى تستيقظ ، وإذا القائم بخدمة يحمل إليك فنجاناً من الشاي وثلاث بسكوينات أو أربعاً وتفاحة أو برتقالة أو واحدة غيرهما من الفاكهة ، ويضع ذلك على الرف إلى جانب مخدعك تكاد تتناوله من غير أن تجلس في فراشك . فإذا اطمأن إلى أنك استيقظت أهدى إليك في رقة وأدب تحية الصباح وسألك عن الساعة المضبوطة التي تريد أن تذهب فيها إلى حمامك ، وهل أنت بحاجة قبلها إلى شيء من الماء الفاتر لترتين ذنك . هذه الحركة كافية لتدلك على أن الساعة أصبحت السادسة ، وأن الوقت آن لتأخذ بأسباب اليقظة . على أنك في حل من أن تظل آخذاً بهذه الأسباب إلى ما بعد الساعة التاسعة حين تصعد لتناول إفطارك بغرفة الطعام عسيده وبيضاً ولحماً وشايًا وفاكهة وما شئت إلى جانب هذا كله من المَطعومات . وبعد الساعة التاسعة تبدأ اليقظة على سطح البواخر عامة والإنكليزية خاصة . ولقد يود المسافر ، في اليوم الأول ، بل في الساعات الأولى من سفره ، أن يتعرف إلى البيت الجديد ، بل المدينة الجديدة ، التي يقيم فيها أيام هذا السفر ، فيلتمس صالون الباخرة وغرفة المطالعة وغرفة التدخين فيها وما قد يكون في بعضها من صالونات وغرف عدة . فإذا استوى إليه علم ذلك كله عاد إلى سطح السفينة يمشي الهويني يحاول أن يتعرف وجوه المسافرين معه . وهذه النظرة الأولى من المسافر إلى بيئته الجديدة تستغرق من وقته ساعات سفره الأولى ، وتبعث إلى نفسه مالكل جديد من لذة ما لم يحل دوار البحر بينه وبينها . فإذا انتصفت الساعة الحادية عشرة صباحاً رأيت عربة صغيرة يدفعها أحد خدام الباخرة تتبعها عربة أخرى وعلى إحداها فناجين الحساء « الشربة » وعلى الأخرى بسكويت غير محلى ليتناول كل مسافر من ذلك حظه . وفي الساعة الأولى من بعد الظهر ينزل الكل إلى غرفة الطعام لتناول غداثهم ، ثم تعقب ذلك فترة هدوء وسكينة ينتهزها بعضهم لينالوا غفوة الظهيرة على المقاعد الطويلة فوق سطح المركب لمن لم يشأ منهم أن ينزع ملابسه ، وفي القمرات لمن أراد الراحة التامة . ولعل مواطنينا المصريين أشد الناس حرصاً على هذه الراحة التامة . فإذا كان العصر تناول المسافرون الشاي وأمضوا ساعة أو نحوها بعده ثم سمعوا ناقوس المساء يدق يدعوهم ليعودوا أنفسهم لطعام العشاء ولارتداء ملابس السهرة . فإذا كانت الساعة الثامنة أشرقت غرفة الطعام بالسيدات في ملابس زينتهن وفي حليهن البديع البريق ، وبالرجال يلبسون الأسموكنج

ويتخللون السيدات في جلستهم إلى المائدة لتبدو كل جميلة منهن كأنها زهرة عطرة بين أوراق يانعة هي بالزهرة بر وعطف وحنان . وينتقل الكل لتناول القهوة في الصالون وينسحب المدخنون من الرجال إلى سطح المركب أو إلى غرفة التدخين ، ثم ينقسم الجمع طوائف تهفو آذان طائفة إلى سماع الموسيقى ، فتجد من سيدة بارعة ، أو من رجل متقن ، من يشنفها بحلو النغم . وتنتقل طائفة إلى حيث يلعب كل جماعة منها نوعاً من أنواع الورق على موائده الكثيرة في البار وفي غرفة التدخين وفي غيرها من الأماكن التي يهوى اللاعبون إليها . فإذا انتصف الليل أو قارب أن ينتصف بدأ الناس ينسلون لواداً إلى مضاجعهم يقضون فيها ليلهم منتظرين دقائق القائم بخدمة القمرة على بابها متى أصبحت الساعة السادسة ، ثم دخوله بفنجان الشاي والبسكوت والفاكهة .

هذا نوع من الحياة جديد بالنسبة لسيدة مصرية لم تألفه من قبل ولم يحل حائل دون أخذها منه بنصيب أية سيدة أوربية من المسافرين معها . وهو جديد وإن كانت قد رأت في مصر مظاهره ؛ لأنه اشترك في تمثيل رواية الحياة على صورة جديدة بدل الأكتفاء بالجلوس أحياناً مع النظارة لمشاهدة ممثليها . وهو لذلك جدير بأن يحدث في نفسها ثورة تبعث إليها حياة جديدة كلها نشاط وحركة وإقبال على الحياة ، بدل القعود والخمول وما ألف المصريات من التخلي عن الحياة . فليكن لهذه الثورة النفسية من الأثر المحسن ما رجونا من سفرنا فراراً من وسط ملئ بأشباح اليأس والألم .

لكن لا ! إن الهزة الأولى لا تكفي لتذيب ما تركز في النفس من أكداس الهم ولتبعث إلى سواد الحزن أملاً في ابتسام . لذلك كان من بين المسافرين معنا سيدة فرنسية وزوجها ، يحمل هو شارة الحداد وتلبس هي السواد ؛ فما كان أسرعنا إلى التقرب منهما والتعرف إليهما والسؤال عن سبب حزنهما وأسأهما . وروت السيدة طرفاً من قصتها . لكنها كانت في روايتها لا يخترم الهم كيائها ، وكانت تبدي من الاستسلام للقدر ومن مجالدة الأسى مثلاً صالِحاً يجعل الأم الثاكل تفكر من جديد فيما طالما ذكرته لها من أن الحزن لا يعيد مفقوداً ، وأن مغالبة الألم والتغلب على اليأس خير ما يفتح مغالق الحياة وينير للأمل السبل إلى النفس ينشر في أنحائها من ضيائه ما يعيد إليها في الحياة كل رجاء . ولعل السيدة الفرنسية لم تكن وحدها التي مهدت للأمل والرجاء سييلهما . فقد كان بين المسافرين جماعة لا يهون عليك أن تتصور كيف لا ينكمشون معتزلين الحياة وهم مع ذلك مقبلون أشد إقبال عليها مسلمون أنفسهم لألوان من المتاع فيها كأنما هم غارقون منها في لجج النعيم .

فهؤلاء شبوخ وعجائز هدهم الكبر ، وهم مع ذلك يأخذون كل مساء أبهج زينتهم ، فإذا غادروا غرفة الطعام وجاء خدم الباخرة فخلقوا من أنفسهم موسيقيين يوقعون نغمات الجاز والفوكستروت والشارلستون هرعوا إلى حلقة الرقص كأكثر الشبان فيها نشاطاً ومرحاً . وهذه سيدة نصف آتية وحدها من أستراليا لم تنعم عليها الطبيعة بشيء من الجمال وإن أسبغت عليها فيضاً من الصحة والعافية تخفى في طيه سنها تندفع إلى الرقص كلما عثرت بمن يرقص معها حياء من إلحاحها ، ناسية سمن بدننها وانتفاخ وجهها حتى يكاد يبض منه الدم ، مكتفية عن الجمال والشباب بالعافية المفتونة والماس الثمين تحلى به أصابعها وصدرها ورأسها . وهؤلاء شبان وفتيات من الإنكليز لا يدري أحد ما قد يكون انتاب حياتهم من فواجع وهم يقضون نهارهم يلعبون نوعاً من التنس يطيقه سطح السفينة . أليس من هؤلاء العجائز والشيوخ والفتيات والشبان أحد غاله من أسباب الأسى ما غالنا ، ومن لو تفتحت كلوم قلبه لألهمت صدره زفرات تفرى المهجة وتذيب الحياة ؟ وقد يكون فيهم هذا الرجل أو هذه المرأة ، وقد يكون بينهم من هؤلاء أكثر من رجل أو امرأة . وأنى لنا أن نعرف والناس أسرار ! لكن هاته الحياة الغربية يجتمع فيها الناس بعضهم ببعض ، رجالاً ونساء ومن بينهم من تعرف ومن لا تعرف ، تحمل الفرد على أن يتعالى كبراً عن أن يخنى لم هامته أو يظهر منه إلا ما تهش له الجماعة وتستريح إليه ، كما يجعله يكبر في مغالبة ضعف نفسه لتسمو إلى مكانة من تحية الجماعة وإكرامها . حياة هذا شأنها تقوى النفس وتشغلها بكثرة تكاليفها عما يضعضع منها ويضعفها . ولنا في حياة المزارعين من أهل ريفنا مثل حي لصدق هذا الرأي . ولصلاح الحياة الحرة ، ولدفعها صاحبها للسمو فوق مواطن الانحلال مما تهوى بالقلب إليه الحياة الحبيسة التي كانت نساء الطبقتين الوسطى والموسرة تحياها ، والتي لا تزال حتى اليوم نصيب الكثرة الكبرى منهن . وكذلك يتجلى للناس أن الحرية قوام كل خير في نواحي الحياة جميعاً ، ناحية العقل ، وناحية الحس ، وناحية العاطفة ، وناحية الشعور ، وأن الحرمان من الحرية وتقييدها مفسد للعقل والحس والعاطفة والشعور جميعاً ، قاتل لحياة الإنسان كما يقتل الظلام والسجن حياة الحيوان والطير والنبات وكل ما في الوجود من صور الحياة .

وجازت الباخرة بنا « كريت » من غير أن نراها ، ثم كنا في اليوم الثالث من سفرنا نتظر أن تجتاز بنا بوغاز « مسينا » . وتناولنا شاي العصر واليابسة ما تزال تتبدى أمام النظر سراباً لا تستقيم حدوده . فاستعنت بمنظار مقرب لأحد المسافرين ، فأبصرت عن بعد نواقي لعل

أحدها دير أو ما يشبهه . على أنها ما انفكت تقترب ثم تقترب حتى انكشفت أمام النظر رمال « مسينا » القاحلة ورمال الجنوب الإيطالي المجذب . وكلما ازددنا من هذه الشواطئ المححلة من كل علامات الحياة دنواً نجمت أمام النظر بعض علامات الحياة من منازل ومراعٍ للنعم ، أو لعلها أشجار أصارها البعد في مثل نبات المراعى . والآن تبدأ تباشير مغيب الشمس ، ويبدأ البوغاز في أضيق أجزائه ينكشف أمام العين لترى البحر من ورائه تنفسح لفته حتى تبتلع آفاق السماء وتبتلعها آفاق السماء . في هذه اللحظة وقفت محركات السفينة فجأة ليحاذر بها ربانها ما يحيط بها من صخور . كذلك قالوا . أما أنا فخيّل إلى أن جلال هذه الساعة الساحرة وهذا المنظر العظيم في جماله وجده قد بلغ من نفسه مكان البهر ، فاستمهل وتأنى ليزداد به ويزيد منه المسافرين متاعاً . ولم يكذبني المنظار المقرب حيناً أراى وما نزال بعيدين ديراً . فهذا البناء السامق في قمة الهضبة المطلة من « مسينا » على البوغاز صومعة أودير أوطابية أقيمت لتحضى البوغاز وفناره . ولعله إلى الطابية أقرب ؛ فهذا الفئار على قرب منه بل بجانبه يهدى البواخر التي ما تفتأ تعبر البوغاز ، هو بحاجة إلى حماية كما يحتاج كل هاد إلى حماية . وعلى مقربة من الطابية ، ما خلا حرماً فسيحاً من الرمال ، تقوم منازل مثورة على سفوح الهضبة لا أدري ما قوت أهلها وليس ما حولها من النبات إلا ما قدمت ، وما سوى هذه المنازل القليلة على سفوح « مسينا » وجنوب إيطاليا فحجارة ورمل لا تنبت إلا التجرد والحل ؛ على أن لها في تجردها وإمحالها جلالاً وروعة كجلال موج البحر وروعته . ثم إن الحظ الحسن هو الذى ساقنا لنها في ساعة المغيب حين تبدأ تكتسى ، بدل قطوبها ساعات تجعد الضوء الباهر ، وشياً رطباً تختلط فيه الحجارة بما يندى به أثر جو الغروب . وقد استوقف لين هذه الرمال والحجارة نظرى زمناً ولفتنى إلى ملاحظة لم تدر من قبل بخاطرى ، فهبوط الظلام يدخل على الأحياء الآهله وحشة تزداد كلما أوغل الظلام إلى دجنته ، وتصل بك إلى الفرع منها بعد أن تكون ألوان الخشية فالخوف فالوجل قد تسربت إلى نفسك مع كل قطعة تهبط من كسف هذا الظلام . فأما هذه البقاع القاحلة فأخوف ما تكون ساعات الظهيرة وحين يبهز الضوء فيها الأبصار . فإذا تولت الشمس عنها بدأت تأنس إليها ، ثم كان لك من نجمها وإن غاب القمر سمير وأنيس . وسبب هذا فيما أنخال أن الأحياء أشد ما يخشى الحى ، وأن الإنسان أخوف ما يخاف منه الإنسان . فظلمة الأحياء الآهله لباس لكل ألوان الغدر والغيلة واللؤم والجريمة . أنت في كل خطوة لك فيها معرض لغادر يسلبك مالك أو حياتك ، ولكمين ينصب حباله لشركك أو نفسك . والنور وحده هو الكفيل بهتك

الكثير مما تخاف من غدر الغادر ولؤم اللئيم . فأما هذه الرمال المترامية أمامك والتي تشعر بنفسك فيها بعيداً عن الناس والأحياء فلا تعرف الظلمة الحالكة فيها مكمناً للؤم والغدر ، ولا تخشى أنت فيها إلا الحيوان المفترس أنت ما حذرته أشد به فتكاً وأقوى عليه سلطاناً . واجتازت الباخرة البوغاز وأطلقت محرقاتها العنان وانطلقت محاذية شاطئ إيطاليا ، والجو يظلم رويداً رويداً ونحن في شغل بذلك كله وبما تكشف عنه المقربات من أنوار تبدو على الشاطئ . وللمسافرين على البحر ولع أى ولع باستجلاء كل ما يستطيعون من مظاهر الحياة على الأرض ، وكأنهم ما تزال تتحرك في نفوسهم غرائز الأقدمين من أجدادهم ممن كانوا يرون في البحر عدواً لدوداً لهم . ويرون في اقترابهم من اليابسة أنساً لنفوسهم وسلم نجاة من خطر قد يتزل بهم ؛ أو كأنما يدفع بهم إلى هذا الاستجلاء ما ركب فيهم من تطلع ، فهم يحاولون والسفينة فوق البحر تجرى بهم أن يستشقوا ما يجري خلال الجدران على أبعاد نائية . ولم يصرف المسافرين عن الإمعان في تطلعهم إلا رنين الأجراس تدعوهم كيما يتزينوا لطعام العشاء . وخيمت الظلمة على الوجود حين تناولنا القهوة في صالون الباخرة ، وحين أعلن إلينا أنا بعد برهة سنمر ببركان « سترمبولي » الذي سكن منذ أيام هياجه ، لكنه ما يزال يقذف في وجه السماء شيطاناً من نار يرسل الفينة بعد الفينة منها شواظاً . وعدنا إلى مراصدنا تجاه الشاطئ الإيطالي ، وأمسك بعضهم مناظيرهم المقربة رغم حلكة الظلام . ثم نادى أحدهؤلاء : هذا شواظ رأيته . وحذقت الأبصار وامتدت الأعناق وحاذت السفينة منطقة البركان فإذا به يقذف من فوهته المتدثرة في حجاب الظلمة كل دقيقة أو دقائق قطعة مصهورة من حجر أو حديد تندفع في الجو كأنها شهاب ثاقب ، أو كأنها النار التي يقص العجائز أن عيون الجن تتقد بها وتقذح منها شررها . وكلما دفعت فوهة البركان بواحدة من هذه القذائف ارتفع من بين المسافرين في صوت واحد نداء : هاهي ذى ! ثم عادوا ينتظرون القذيفة التي تليها يتنفس عنها غليان هذا الجبل الهائج جوفه . ولما كثر ما رأينا منها هدأ نداء المسافرين شيئاً فشيئاً حتى سكن ، وجعلوا ينصرفون واحداً إثر واحد حتى باعدت الباخرة بينهم وبينها ، ودخلت من الظلام في لجة كانت هي وحدها ضياءها .

وفي الغداة تناول الحديث وصولنا مارسيليا والساعة التي نبلغها فيها . وعلمنا أنا واصلون صباح الغد . وعلقت الباخرة الأخبار اللاسلكية التي تلقتها من المرفأ الفرنسي ، فوصلت بذلك بيننا وبين حياة جديدة بمقدار ما زجّت بما خلفنا في مصر في طي النسيان . وقصت هذه الأخبار ما تحجش به فرنسا من قلق بسبب هبوط سعر النقد فيها . فقد هوى سعر الفرنك

حتى صار مائتين وأربعين للجنيه الإنجليزى ، فى حين لا يساوى الجنيه الذهب إلا خمسة وعشرين فرنكاً ذهباً . وأدى ذلك إلى استقالة الوزارة الاشتراكية التى كان يرأسها هريو وقيام وزارة بوانكاريه الائتلافية . وقد نشأت عن الهبوط ، على رواية اللاسلكى ، قلاقل فى باريس تنذر بقيام أهلها ضد الأجانب الذين يتلاعب بقدهم بأسعار نقدتها ، والذين جعلوا من غلاء الحياة على أهلها ما أزعجهم وأعاد أمام أبصارهم أسباب الثورات وأشباحتها . وأعلن بعض المسافرين أنه سيرج مارسيلى ساعة وصولنا إياها تَوّاً إلى سويسرا نجاة بنفسه من أن يزوج بها فى بلد يغلى جوفه بأسباب الثورة ، كما كان يغلى جوف البركان الذى شهدنا من ساعات بقذائف اللحم . . . أما أنا فبقيت على عزمى أن نقصد تَوّاً إلى باريس فهى خير مصح نبدأ به لزوجى ولى . وربما زاد من خيره أن يضطرب بأسباب القلق أهله بما يدعونا إلى مزيد من التفكير فيه وإلى مزيد مثله من نسيان أنفسنا . وقد شهدت من قبل فى أمم مختلفة وفى باريس نفسها ظاهرات قلق بل ثورة ، فألفيتها لا تمس إلا من ألقى بنفسه فى غمارها وأخذ منها بنصيب .

ورست الباحرة بكرة الغد فى مارسيلى ، فلم تتمكن من مشاهدة مدخل مينائها الجميل بهضابه وبالقصور المتوجة هذه الهضاب . وأتممتنا التأشير على الجواز ، وجاء الحمالون فأنزلوا متاعنا إلى الشاطئ ومررنا به من الجمرك ، وأقلتنا سيارة اخترقت بنا أحياء مارسيلى ، فأرثنا من جديد حياة جديدة ، وأنزلتنا فندق « نواى » لنبدأ فيه حياة الفنادق ، فنبدأ حياة جديدة هى أيضاً .

* * *

صعدنا إلى غرفة الفندق التى اخترنا ، وصعد الحمالون إليها بمتاعنا ، وأجابت جرسنا خادمة تخطو من الصبا إلى الشباب ، صبح الوجه باسمه السن ، ضاحكة النظرة ، متوردة الخد ، ناصعة اللون ، حلوة القسيات ، متقاربة القوام ، بضة من غير سمن ، كلها حياة وصحة وكلها هشاشة وبشاشة ، ويكاد كل جسمها ووجهها ونظراتها وثغرها يصيح من فرط الشباب حبوراً ومرحاً ، وما لبثت أن دخلت ففتحت النوافذ فأرثنا ميداناً تتوسطه الأشجار باسمه الخضرة الزاهية . وأجابتنا إلى ما طلبنا فى بشاشة وخرجت كذلك فى بشاشة وأجالت زوجى بصرها فى الغرفة مرة أخرى ، وأطلت مرة أخرى من النوافذ ، وجلست إلى المقعد الطويل تطوق ثغرها ابتسامة خالصة لم أشهد منذ ثمانية أشهر مثلها ناطقة بالغبطة والرضا ، كأنها تستقبل . هذا النوع الجديد من الحياة ترى فيه أملاً جديداً فى شىء من السعادة

كان قد خيل إليها أنها فرت من بين يديها فرار الأبدي ، ولم يبق لها في شيء منها رجاء . وسعدت أنا بهذه الغبطة أن أيقنت فيها بداية البرء من سقمها النفسى الذى هد وجودها وضعضع صحتها . وبداية البرء بشير خير بتواتر تقدمه . لذلك أيقنت أنها واجدة في باريس الدواء الناجع لهذا السقم .

وخرجنا نجوب شوارع المدينة المحيطة بالفندق وندخل بعض متاجرها . وأخذنا عربة عند مقرب الظهر طافت بنا البرادو والكورنيش والكانبيير ، ثم انتهت بنا إلى مطعم له شهرة في صنع سمك البويابيس . وأذكرنى طواف العربة بنا في هذه الشوارع والمتنزهات البديعة على الشاطئ الفرنسى الجميل الكلمة المعروفة التى يسخر أهل باريس من أهل مارسيليا حين يقولونها : « لو أن باريس كان بها كانبيير لكانت مارسيليا مصغرة » . ولئن يسخر أهل باريس من هذه الكلمة فللمرسيليين عنها من العذر أن متنزهاتهم هذه والبرادو في مقدمتها ، لها من روعة الجمال ومن عناية بلدية المدينة بها ما ينقل إليك أثناء اجتيازك إياها من سحر ابتسام شجرها وزهرها ومن التقاء هذا الشجر في بعض مواضعه بالكورنيش الذى يحاذى البحر وصخور شاطئه ما ينسيك كل شجن ويطير بك على أجنحة الخيال والنسيم كل مطار .

وعدنا بعد تناول الطعام إلى الفندق نسأل عن مواعيد القطارات المسافرة إلى باريس معتمدين اجتياز طريقها أثناء الليل . لكن صديقاً ذكرنى بجمال هذا الطريق ، وبأنه جدير بأن يراه الإنسان في سفره . ولئن كانت أربعة عشر عاماً قد مضت منذ تركت فرنسا فإن ما لا يزال باقياً من أثر جمال أريافها في نفسى جعلنى أفضل الأخذ برأى صديقى . وكذلك أتاح لنا الحظ أن نقضى أربعاً وعشرين ساعة كاملة بمارسيليا هى أطول مدة أقمتها بها خلال المرات الكثيرة التى جزتها فيها .

وقضينا عصر ذلك اليوم نرتاد المدينة آناً في عربة وآخر على الأقدام . وأحسب أن السير على الأقدام خير وسيلة لمن يريد أن يعرف شيئاً عن بلد يحل لأول مرة فيه . وإنا لفي مسيرتنا إذ استوقفنا بناء جميل فخم كله الرهبة والجلال لا يشوبهما عبوس ولا ينقصهما حسن اتساق وصعدنا النظر في واجهة البناء فإذا مكتوب على بابه : « قصر العدالة » . هذا القصر إذاً هو محكمة مارسيليا الكبرى . هو مأوى القانون ورجاله والعدالة وطالبها . هو معبد كهنة الحرية والنظام في هذا العصر الديمقراطي الذى سما بحرية الفرد إلى مكان القداسة العليا ، فلا رقيب عليها ولا حسيب إلا أن يحاول الفرد الاعتداء على حرية غيره .

فإذا فعل أُلقت عليه سلطة القانون يدها وجاءت به أمام هؤلاء الكهنة ، وهم أفراد من أمثاله لا امتياز لهم فيما وراء جدران هذا المعبد عليه ، فطبقوا عليه القانون الذى ارتضى ، لا القانون الذى يفرض عليه ولو على كره منه . هذا المعنى جدير بأن يقام له هذا القصر ، بل هذا المعبد الرهيب الجليل . فالعدل القائم على أساس الحرية الصحيحة هو أسمى المعانى الجديرة بالتقديس والإكبار . والناس ما استمتعوا بحريتهم ، وما قام العدل بينهم ليكفلها ويحميها ، جديرون بأن ينالوا كل ما يمكن أن يكون فى الحياة من سعادة ، وأن ينهضوا بالحياة وبالإنسانية إلى مرتبة الكمال التى ترجو الإنسانية بلوغها .

ومررنا بميدان فسيح لا تستوقف النظر عمارته ، لكن زوجى استوقفنى منه عند منظر أثار دهشتها وعجبها لأخلاق « هؤلاء الفرنسيين » . ذلك شاب وفتاة يتحدثان فى الطريق . فلما آن لهما أن يفترقا قبلته وقبلها واتخذ كل سبيله . أو ليس مدهشاً حقاً أن يتبادل شاب وفتاة القبلات فى الطريق العام ! بل فى ميدان فسيح وبأعين جمهور المارة من غير أن يحول الخجل دون ارتكابهما هذا الفعل علناً ! وذكرت لها أن هذا من متعارف أخلاق الأوربيين ؛ فهو لا يجرح حياء أحد ، وهو كذلك لأنه قبله أخوية للقاء أو وداع يعبر اللذان يتبادلانها عن إحساس جميل وعاطفة نبيلة . والأعمال تقدر ، ويجب أن تقدر ، بالنيات التى تدفع إليها أكثر مما تقدر لذاتها . والحياة الحرة التى بلغت أوربا بعد جهاد طويل وثورات مضنية وتضحيات غالية ، والتى أقامت بين الرجل والمرأة من المساواة والإخاء ما جعلهما يتبادلان العواطف والمنافع كما يتبادلها رجلان ، أو كما تتبادلها امرأتان ، قد قصت فى القلوب والأذهان على الاعتبار الجنسى الوضع الذى يجعله أكثر المصريين وأهل الشرق فى المكان الأول من قدر صلات الجنسين الذكر والأنثى ، وارتفعت بالنفوس إلى اعتبارات إنسانية سامية دفعت الناس جميعاً رجالاً ونساء إلى أن يتنافسوا كى يبلغوا على الحياة كل ما يستطيع من كمال ، ومتى غلب نزوع النفس إلى السمو أهواء الجسم فى التمدل إلى شهواته ، اختلف معيار التقدير الخلقى واختلف تبعاً له نظرنا إلى أعمالنا وأعمال غيرنا وحسن قدرنا إياها ، أو إعراضنا عنها حياء منا أن تقع العين عليها . فقبله شاب وفتاة فى الطريق العام وضيفة مخجلة إذا كانت دوافع الجنس وحدها هى التى تهيج نفسيهما بها . وقبله شاب وفتاة بريئة طاهرة ما كانت مظهر حب طاهر وعاطفة شريفة ، وما دامت الحرية الحقة تفترض فى الناس الطهر والبراءة ، فليكن النظر العام للقبالات كلها على أنها قبالات إنسانية سامية ، كقبلة الأخ لأخته ، والأب لابنته ، والخطيب لمخطوبته ، ولتكن القبلة

الوضعية موضع إعراض عنها وإغفال لها . وكفى بصاحبها جزء شعورها بعدها بأن العمل الذى أتياه ونفوسهما ملوثة يكون أبدع مظهر للطهر والبراءة صادراً عن عاطفة أنزه وأتقى . وبعد ، فما هذه الصلات التى تلوث جمال القبله وما قيمتها من نفوس مهذبة وأذهان مصقولة وعقول تدرك أن أكبر متاع فى الحياة طرب الذهن لتفكير دقيق ومنطق سليم ، وطرب الفؤاد لفن جميل وأدب رائع ! وأجمل ساعات المرأة حين تبدو قطعة من الفن ومن التفكير ، وحين تسمو كل الصلات بينها وبين الرجل لتكون فناً وتفكيراً هى أيضاً .

وقضينا طرفاً من الليل متنقلين فى أماكن مختلفة قريبة كلها من الفندق . وفى الصباح انطلق بنا القطار ووجهته باريس يقطع من جنات الله رباً وأوديةً وغابات وأنهاراً محاذياً الرن السريع الاندفاع ، وتتجلى للنظر من نوافذه أرض فرنسا الجميلة كلها حديقه يسقيها المطر ، وتندرج أغلب الأحايين مزارعها بين ارتفاع وانخفاض بما يلائم مسيل الماء عليها . وفى ديوان السكة الحديدية الذى كنا فيه رجال وسيدات غير ما ألفنا فى أسفارنا بمصر . وهؤلاء وأولئك يتحدثون جميعاً بعضهم إلى بعض بعد ما أحدث السفر بينهم التعارف . ومن بين السيدات جميلة تزهى بجمالها ، ولكنها لا تراه وحده حياتها ، ولا تحسب فرضاً على كل مافى الوجود أن يكون له عابداً . ونزلت هذه السيدة كما نزل غيرها ليون والمحطات السابقة لها ، وجعل رفقاء الديوان يتغيرون ؛ يتركه بعضهم ليجىء إليه غيرهم . فلما تخطينا ديجون ولم يبق بيننا وبين باريس غير محطة لا روش لم يكن بالديوان غيرنا إلا سيدة نصف أدنى إلى الكهولة صحتنا من مارسيليا ، وهى لا ريب تقصد مثلنا باريس . ومنذ تحرك القطار فى الصباح جعلت تلمس فى حقيبتها غطاء من الشبكة لشعرها ، وتغنى الحين بعد الحين بشيء من زينتها وتقضى ما بين ذلك ملقيه نظرها على كتاب بيدها أو مجلده إياه فى الفضاء . فلما انفردنا وإياها بعد ديجون اتصل بيننا وبينها حديث عرفت منه أننا مصريان نقصد إلى مدينة النور تسلياً بها عما أصابنا ، وأنى أعرف باريس أن قضيت ثلاث سنوات فى طلب العلم بها . وعلمنا نحن أنها كانت مدعوة فى الحفل الذى أقامته شركة المساجيرى ماريتيم لتدشين الباخرة ماريت باشا ، وأن الباخرة سافرت بهم ذهاباً وجيئة بين مارسيليا وبرشلونة بإسبانيا ، وأطلعتنا على صور صالون الماريت وغرفة الطعام بها وبعض غرف نومها . وسألته هل دعيت بوصفها صحفية ، ليكون لى شرف مزاملتها ؛ فما كان أشد عجبى حين علمت أنها الكاتبة الفرنسية الكبيرة مارسل تنير صاحبة « هلى » و « بيت الخطيئة » و « ملاحه العيش » وغيرها من الروايات التى يشيد بها الأدب الفرنسى وتشيد به . وذكرت لها ما قرأت

منها وما أثار إعجابي من كتبها ، فاستحييت وعدلت بنا عن حديث الأدب ، وأخذت تحدث زوجي فيما لا يمل النساء الكلام فيه : الملابس ، وأعطتها عنوان خياطة زكتها بأنها متقنة غير عالية الأجر ، وحذرتها من المحلات الكبيرة التي تستغل الأجانب شر استغلال . وعجبت أنا لهذا حتى خالجنى الشك في أمرها . فإن كانت حقاً مارسل تنير فما بالها تعدل عن حديث الأدب الفرنسي حتى كأنها لا تعرف عنه شيئاً ؟ وما بالها وقد تجاوزت بعد الشباب مراحل تظهر كل ما أظهرت من عناية بزيتها ؟ ثم ما بالها تقف من حديثها عند الملابس شأن أية فتاة وأية سيدة لم تنل من التثقيف والتهديب حظاً يذكر ، بل لم تنل منهما أى حظ ؟ ولكنها إن لم تكن مارسل تنير فلماذا تسمت باسمها ؟ وإن تكن هي حقاً ، وكان ما أثار عجبى أغلب شأنها ، فما أشدها شبيهاً بشعراء وأدباء عرفت وأعرف لا تلمح على سباهم أى مظهر للنبوغ ، بل للموهبة ، وهم مع ذلك في الشعر والأدب فحول مقدمون ، وكأنما يتنزل عليهم الوحي في سر من الناس ، أو كأنهم إذا فرغوا من تصوير ما يلهمون شعراً أو نثراً خلت أفئدتهم في انتظار وحي جديد . وهذا جان جاك روسو الكاتب الخالد يذكر عن نفسه في اعترافاته أنه كان في الجماعات أقرب إلى العي وأبعد ما يكون عن حضور البديهة وتوقد الذهن . وهذا أمير الشعر العربي في عصرنا أحمد شوقي بك يصل منك الإعجاب بشعره إلى غاية المدى ، فإذا تذاكرت معه في شيء عن الأدب العربي أو الأدب الفرنسي خيل إليك أنه لا يعرف شيئاً منهما . ففعل مارسل تنير ، إن تكن هي التي رأيتها ، من طراز روسو وشوقي . أم لعلها استكبرت عن أن تحدثنا في أدب فرنسا وقد ذكرنا لها أننا مصريان ، وفي ذهنها مثل ما في أذهان أكثر الأوربيين عن مصر صورة شوهاء بتراء لا تشرفهم ؛ لأنها تدل على جهالة ما كان يصح بقاؤهم متورطين فيها . وإذا كان لي أن أبتعد عن هذا التأويل بعد ما عرفت مني أني قضيت بباريس ثلاث سنوات في الدراسة العالية فإني لا أظنه مستحيلاً ، وقد رأيت من جهابذة العلم والأدب في أمم مختلفة بأوروبا من يبلغ بهم سوء التصور حتى ليحسبون أن ليس ثمة معرفة بالعلم والأدب في غير أوروبا ولغير الأوربيين . . !

على أنها رأت حينما قاربنا باريس ألا تترك في خيال زوجي صورة وهمية من عاصمة فرنسا تجعلها ، حين تراها مدينة كالمدائن ، تشيح عنها بوجهها وترى رجلها إليها وما قطعت من بحار وأقطار لهماً وعبثاً . فذكرت لها أن باريس شوارع وطرق ومنازل وعمارات ، وأن بها أحياء فقيرة كغيرها من المدن وكالقاهرة نفسها ، وأن الكثيرين الذين يفدون لأول مرة إليها يظنون قبل نزولهم إياها أن مبانيها حجر من ذهب وحجر من فضة ، وأن هواءها

معطر بالورد ، وأنها بعض ما ورد في ألف ليلة وليلة من مدائن الخيال ، فإذا رأوا أن لا شيء من ذلك فيها أعرضوا عنها واعتزموا الانصراف إلى غيرها . لكنهم ما يلبثون بها زمناً حتى يتبدى لهم أن جمال باريس روح باريس ، وأن الإنسان كلما ازداد بهذا الروح اتصالاً ازداد به تعلقاً وشغفاً . ووافقها أنا على ذلك تمام الموافقة ، وأضفت أن ما يبدو للنظرة الأولى من باريس هو أقبح جمال باريس ، وأن طول المقام بها والمزيد من التعرف إليها والاختلاط بصميم حياتها ، ذلك هو الذى يكشف عن روعة جمالها وعظيم بهرها .

وبلغ بنا القطار مدينة النور قبل منتصف الليل بساعة ، فإذا أرصفة محطة ليون من محطاتها تكاد تكون خالية ، وإذا نورها ضئيل ، وإذا بنا نصيح بحمّال ينقل متاعنا خارج المحطة فلا يجيبنا أحد زمناً غير قليل ، ومتاعنا كثير غير سهل الحمل . فجعلت أدور هنا وهناك منادياً : شيال ، شيال ، حتى عثرنا منهم على من أوصلنا إلى « أوتمويل » أقلنا ومتاعنا إلى فندق شاتام مجتازاً أكثر الشوارع خلاء وسكوناً في هذه الساعة الساكنة بطبعها من ساعات الليل . وكان السفر قد هدنا تعباً ولغوباً ، فأوينا إلى غرفتنا منتظرين بكرة الصباح لكي نستقبل باريس وتستقبلنا باريس .

في باريس

بعد أسبوعين من مقامنا بباريس دلفت ضحى يوم منفرداً أسير الهوينى في طريق الأوبرا ، من ميدان الأوبرا إلى ميدان التياترو الفرنساوى ، أمتع النظر بما حوته حوانيت هذا الطريق ومخازنه من بديع الطرف ورائع آثار الفن . وانتهيت إلى قهوة الريجانس نحو الساعة الحادية عشرة . ولم أر أن أمكث على مائدة من موائدها الخارجية التى تشهد المارة في الميدان يسرون جميعاً مسرعين سواء منهم الرجال والنساء والشباب والشيب ، بل جرت إلى داخل المكان وجلست إلى مائدة في أحد أركانه ، وطلبت « نصفاً » من البيرة ثمناً لجلوسى . ودخل الريجانس كداخل أكثر مقاهى باريس ضئيل الضياء حتى لينرونه بالكهرباء في الأيام الغائمة . وجعلت وأنا بمجلسى أجيل الطرف فيما حول ، وأفكر فيما أضيع فيه الزمن الباقى على موعد الغداء . وكان إلى جوارى شخصان مكثا نحو ربع الساعة ثم انصرفا ، وصرت بعد ذهابهما وحيداً في المكان كله . فطلبت إلى الخادم أدوات الكتابة وأخذت أسطر رسالة « للسياسة » عن باريس ورحلتى إليها . وما كان لى أن أفضى للناس فيها بما تتوجع له نفسى وأنا أشدهم مقتاً أن يرى أحدهم أى مظهر من مظاهر ضعفى . لكن الكاتب لا يصدر فيما يكتب إلا عن نفسه . وإذا تناول غير ما يدور بخاطره فإن ما يتناوله يصطبغ دائماً باللون الذى يرى هو به الحياة . لذلك كانت مقدمة رسالتى الأولى من باريس كما يأتى :

« أربعة عشر عاماً من الحياة (من سنة ١٩١٢ إلى سنة ١٩٢٦) تقضت بين مغادرتى باريس بعد تمام دراستى بها ، وعودتى إليها زائراً متترهاً ككل زائر متتره . أما باريس فتغيرت إذ صارت أكثر حياة وحركة . وأما أنا فتغيرت إلى نقبض ما تغيرت باريس . وما بالك بأربعة عشر عاماً هى خير أشطر الحياة تساقط واحداً بعد الآخر في غيب الماضي بين حرب وثورات واضطرابات لم ير العالم ولم تر مصر لها نظيراً ! ما بالك بربيع الحياة تطوح به الحياة في السعير واللهب ، وفي حمأة الجنون والهوس العالمى مما لا يزال يضطرب به جوف العالم ! لذلك كان مقامى بباريس تملؤه الحسرات . . . أين الفؤاد الذى كان يهتر لما في باريس من روعة ولما في ضواحي باريس من جمال ؟ ! أين النفس التى كانت لا تبعاً بالقذى التافه لأنها تستطيع أن تهضم الرواء العظيم الذى يشمل مدينة النور وتفيض مدينة النور به ! وأأسفاه !

إن الممعدود ليضطرب لمراى أطايب الطعام ، والأعشى ليقذى بساطع الضياء ، وهما مع ذلك يدركان لذة الطعام السائع وبهاء النور الوضاء : كذلك من تحدثت سنو شبابه فعدا الزمن على قواده وخرم الهم شغاف قلبه ، هو يرى بهاء الحياة وجمال الوجود ويقدرهما ويعجب بهما ، لكن حجاباً ما يفتأ يغشى خاطره الكلم يحول بينه وبينهما ، ويجعل منهما ، الحين بعد الحين عذاباً له وألماً ، أرايت إلى هذا البدر المحجوب بغلالة بنفسجية فوق قوس النصر ؟ لقد كان من أربع عشر سنة بدعة من بدائع باريس تتعلق بها الأنظار ساعات متواليات . ألم يكن البدر يومئذ عاشق السموات أنحله الحب وشفه الغرام والجنون ؟ ألم يكن يحبو فى غلالته مبططاً آملاً فى لقيا محبوبه شفاء من ألم أرقه وأضناه ! أما اليوم فتحت قوس النصر قبر الجندى المجهول . وفى قلوب كثيرة قبور لجنود غير مجهولة : قبور إخوان وخلان وآباء وأبناء . نعم وأبناء ! وهل لمن فى قلبه قبر ابنه بالبدر أو بباريس عزاء ! إنما عزاه فى الحياة ملكه الحياة وإخضاعه إياها راضية أو كارهة .

« ولكن هل أنا وحدى تحدثت فى سنو الشباب ، أم باريس هى أيضاً قد عانت ما عانيت وتألمت كما تألمت وحزنت بعض ما حزنت ؟ أما الفرنسيون فيجيبونك أن باريس اليوم ليست باريس إلا أن يكون الصالح الذى أثم والبرى الذى أجرم ما يزالان هما إياهما ، لأن أعينهما ما تزال تلمع حرصاً على الحياة ، ولأن قواميهما لا يزالان معتدلين كما كانا . نعم لا يزال قوام باريس معتدلاً ليس كمثله اعتدال ، وعيناها ما تزالان تلمعان حرصاً على الحياة . بل هى اليوم أكثر حياة وحركة . ما تزال باريس مدينة النور ومهبط وحى الفن . لكن نور باريس وفنها ليسا صفواً كما كانا . لم تبق باريس الغادة الهيفاء ، الضاحكة السن ، الناعمة البال ، المطمئنة للعيش ، الواهبة للحياة كل ما فى الحياة من جمال . بل ارتسم على جبين مدينة النور ، ولا يزال أملس وضاء ، جهام من وجل تقطب له ناظرها فوقفت مستبسلة كى تدفع غارة الأجنبي وعدوان الجاهل جمالها وهيبها المعتر بماله كى يملك هذا الجمال وهذه الهية من غير أن يكون قلبه وعقله وجنانه على ملكهما قديراً » .

أقرأ اليوم هذه المقدمة لرسالتى الأولى ، فأسأل نفسى : أفكنت أكتبها بهذه النعمة المحزونة لو أننى ذهبت يومئذ إلى باريس زائراً متترهاً ، ولم أذهب إليها مستشفياً طالباً الشفاء لشريكة حياتى وقد هدها المرض النفسانى أضعاف ما هدنى ؟ لقد بدأنا سياحتنا بعد ذلك بعام ، وبعد أن كانت النفس قد اطمأنت إلى ما أصابها ، بزيارة الآستانة . وعن الآستانة

كتبت ما سيتلوه القارئ من رسائل كلها الحرص على نسيان النفس في روعة الوجود لتنسى النفس فيها ما يحزنها ذكره . أما في باريس فكان الجرح لما يندمل ، وكانت اللوعة ما تزال تبرح بالنفس في ساعات الوحدة من مثل تلك التي كتبت فيها رسالتي الأولى . على أن مقتى لظهور الناس على ضعفى جعلنى أخفيه فأجعله ضعف باريس وهما بسبب تدهور سعر الفرنك يومئذ فيها ، فأقول :

« هذا هو الهم الذى يحترق نياط قلب باريس اليوم . وهو لكل فرنسى همٌ مقيم مقعد . فما تكاد تجلس إلى أحدهم وتتحدث إليه في أمر من الأمور حتى يكون عود الحديث وختامه عن الفرنك ولو كان بدؤه عن الأدب أو الفن أو السياسة أو أى ما شئت من شؤون لا ترى أنت لها بالفرنك علاقة أو صلة . وليس في ذلك من عجب والفرنك وهبوط سعره هو اليوم مرض فرنسا العضال . ومن شأن كل مريض أن يربط كل ما في العالم بمرضه . فالجو والشمس الساطعة أو الذابلة وضجة الناس واضطراب الحوادث وكل ما ينظر له الصحيح على أنه بعض مظاهر الحياة الدائمة التغير مع ثباتها الدائم ، ينظر له المريض في علاقته بعلمته ، ويكاد يخيل إليه أنه يتغير ليزيده علة ، أو ليدنيه من العافية . وهو لا يخفى أمر ذلك على جليس من جلسائه أو عائد من عواده ، بل يتحدث به ويفيض في شرح صلته بأسباب علمته ، ويلتمس في كلمة من محدثه أو نظرة من نظراته بعض أسباب الشفاء » .

ولو أن الحق وعرفان الجميل هما وحدهما اللذان أمليا على تلك الرسالة لاقتضيانى ألا أسلم قلمي لوحى العاطفة وحده ، وأن أذكر أن هذين الأسبوعين كان لهما من الأثر في نفسنا أظنيه ، وأن كل يوم من أيامهما كان يوسع للفؤاد في فرجة الأمل ويحطم جانباً مما أقامه الهم تمثالاً لليأس في قلب زوجى ويعيد إليها رويداً رويداً طعم الحياة كما لا تفتأ تذكر . فقد قمنا بكرة الغداة من وصولنا ، فدلفنا من الفندق في شارع « دونو » إلى طريق « الكابوسين » ثم إلى ميدان الأوبرا ، ومقصدى أن أريها دار الأوبرا البديعة وميدانها قلب حى الحياة من قلب باريس ، وأن أسير وإياها في طريق الأوبرا الذى سرت ميمما الريمانس فيه يوم كتبت رسالتي الأولى لترى معروضات حوانيته ومخازنه واثقاً بأنها واجدة فيها من صور الجمال والزينة ألواناً ليس لنا بها في مصر عهد ، واجدة بذلك في الحياة جديداً يسرى عنها برمها بالحياة ويفرج من ضيق صدرها بها . وعجبت أن لم تحقق البرهة الأولى ظنى ؛ فإنها ما لبثت أن رأت مئات الأتوبيلات المتتابعة في طريق الكابوسين ، ثم ما لبثت في تخطينا من ميدان الأوبرا إلى طريقها أن اضطربت أمام حركة الأتوبيلات

الذاهبة والآية بين ميدان الأوبرا وميدان الفندوم ، وأن بدا عليها الضجر من هذه الضجة المفزعة ، ثم لعلها ، برغم حديث مارسل تنير حين كانت تقدم باريس إليها ، كانت تنتظر أن تحيط نظرتها الأولى إليها بغير ما أحاطت به . على أن هذا الضجر ما لبث أن زال أكثره حين جعلنا نقف أمام معروضات طريق الأوبرا في كل حانوت من حوانيتها ومخزن من مخازنها . ولطريقة العرض وحدها أثر في النفس كبير . والفرنسيون أكثر أهل الأمم في طريقة العرض براعة . لذلك استرعى نظرها الشيء الكثير مما تحتوى معارض هذه الحوانيت . استرعت نظرها صور وتماثيل ، كما استرعت نظرها أقمشة وأزياء ، فجعلت تقارن بين أزياء باريس وأزياء مصر مما أعترف بأني غير طويل الباع فيه ؛ ولذلك اقتصرت على الاستماع إليها والموافقة على ما تبدى من الملاحظات في شأنه . وإنا لكذلك إذ غامت السماء وأرسلت رذاذاً جعلني أفكر في ضرورة المظلة ، أو المطرية كما يسميها الفرنسيون ، في بلاد ما أكثر المطر فيها صيفاً ، وتابعتنا طريقنا ، حتى إذا كنا على مقربة من ميدان التياترو الفرنسي أفضيت إلى زوجي بأنه يجدر بنا أن نقضى مساء اليوم نشهد التمثيل في « الكومدى فرانسيز » . فقالت :

- لكن الفصل صيف وفصل إجازات . أفلا نخشى أن يكون المتقنون من الممثلين قد غادروا باريس إلى مصايفهم وبقي من دونهم من الممثلين درجة ؟
فأجبتها :

- لا عليك يا صديقتي ؛ إن بيت مولير يعتبر في نظر كل فرنسي عنواناً من عناوين مجد فرنسا ، فلن يسمع رجاله لهذا المجد أن يتضاءل ضياؤه في الصيف أو في الشتاء ، ولن ترى يوماً في بيت مولير رواية لا ينال موضوعها إعجابك ولا يأخذك تمثيلها كل مأخذ . وذهبنا وكانت رواية (الحب يرعى - L'amour veille) فلما خرجنا كانت أشد مني إعجاباً ببيت مولير وتقديراً له كآية من آيات مجد فرنسا . ولم تقف بتقديرها عند التمثيل والممثلين . بل كان الجمهور وكان جو المكان وعمارته وكل ما فيه ذا نصيب في هذا التقدير . فلم يكد أول فصول الرواية يرتفع الستار عنه حتى كانت المقاعد كلها قد جلس إليها النظارة ولم يبق منها مقعد خالياً . وبرغم هذا الحشد العظيم لم تكن تسمع أثناء التمثيل همساً أو جرساً إلا ما يفيض به الإعجاب ببراعة ممثل أو ممثلة في موقف من المواقف من دوى المكان بالتصفيق . وزينة المسرح وملابس الممثلات بنوع خاص ، كان من بعض ما لفت نظرها . على أن هذه اللغة الفرنسية الرقيقة القوية ، وهؤلاء الممثلين والممثلات الذين يصورون بها أشد العواطف عصفاً بالنفس وأدق الأفكار اتصالاً بالذهن .

ذلك هو ما أدى بالجمهور إلى إقباله وحسن استماعه وعظيم إعجابه ، وهو ما أدى بنا إلى أن نكثر التردد من بعد على مسرح فرنسا القومى . وانتهى الفصل الأول من الرواية فتركنا أما كنّا إلى بهو الممثلين مجتازين إليه من طريق الشرفة المطلّة على ميدانه . والشرفة طويلة نحو ثلاثين متراً . لكن طولها وحده ليس لافتاً للنظر ، وإنما يلفتته هاته التماثيل الكثيرة القائمة فوق عمدتها على مقربة من جدار الشرفة على أبعاد متساوية . وهى تماثيل نصفية للمؤلفين المسرحيين ، يبعث رأس كل مؤلف منهم إلى نفسك صورة ما ألف ، وصلته بهذه الصورة العصبية أو الدموية الخيالية أو الواقعية الشعرية أو المفكرة . وانتقلنا إلى البهو فإذا به أربعة تماثيل : أحدها تمثال كامل لفولتير بالحجم الطبيعى ، وإذا النظرة ينظرون ، يختال الشباب ، وتبسم الرجولة ، ويهن المشيب . والشرفة والتماثيل والبهو والنظارة كلها تحدثك عن المسرح وفنه وتعلّأ نفسك إقبالا عليه وقدرًا إياه . ودق الجرس للفصل الثانى ، فلما انتهى هبطنا نقضى الفترة التى بينه وبين الفصل الأخير فى الطابق الأول وصالته المتصلة بميدان اللوفر ، وفى الصالة وفى بهو الدخول تحدثت إلينا تماثيل مولير وراسين وكورثى ، كما حدثتنا تماثيل كبار الممثلين والممثلات وفى مقدمتهم مونيّه سول . فلما صعدنا للفصل الأخير لفتت نظرنا لوحة على جدار السلم كتبت عليها أسماء من استشهدوا من رجال هذا المسرح فى ميدان الشرف أثناء الحرب الكبرى دفاعاً عن وطنهم فرنسا ، فأعادت بعض هذه الأسماء إلى الذاكرة صوراً محبوبة فى براعة تمثيلها . وكذلك لم تكن الرواية التى نشهد هى وحدها مأخذ النفس ، بل كانت البيئة كلها تنقلك إلى عالم الفن التمثيلى وتجعلك أدق شعوراً - ببداية ما يحلّيه الممثلون والممثلات على المسرح أمامك .

ورأيت فى إعجاب زوجى بالمسرح دليلاً حسناً على توفيق فى اختيار باريس لتبدأ فيها استشفاءها ، وعدت بها إلى الكوميدي فرانسيز بعد ذلك مرات . ولم تكن أمسية تمر من غير أن نذهب إلى أحد المسارح إلا نادراً . على أن إعجابها بالكوميدي كان لا يفتأ فى ازدياد . وإن أنس لا أنس يوماً كانت فيه إلى يمينى وصديق من أساتذة كلية الحقوق الملكية إلى يسارى . وكنا نشهد تمثيلية رواية « ابنة رولان » ، ونسمع فيها أليير لمبير ومدماوزيل بيرا وزملاءهما من أكابر الممثلين والممثلات . و« ابنة رولان » رواية قديمة تقص تاريخ حادثة بين الأندلسيين وشارلمان ملك فرنسا . وفيها يتحدث شارلمان عن المسلمين بأنهم كفار ، ويستنزل عليهم لعنة الله تطوح بهم فى أعماق سقر . وكان أليير لمبير يمثل شارلمان . فما كان أشد عجبى ، وأنا أسمعه يرفع عقيرته بأشد عبارات التعصب ويدعو قومه إلى قتال هؤلاء

المسلمين الكفار ، أن أسمع عن يميني وعن يساري تصفيقاً حاداً من مسلمة ومن مسلم تصحبه عبارات الإعجاب بهذا الملك المجيد . والحق أن سمو فنّ الكاتب ، وعظمة الممثل وبراعته قد أنست السامعين كل ما سوى الفن والإعجاب به ، ذلك بأنه أخذ بالمشاعر جميعاً فأنساها الحياة الوضيعة وسما بها إلى حيث لا تقدر شيئاً غيره كائنة ما كانت المعاني التي يعبر عنها والصور التي يجلوها والعواطف التي يجيشها . وهل تريد للفن عظمة أكثر من أن يستر ما يملأ نفسك من العواطف العميقة ليقم مكانها ما يناقضها كل المناقضة .

ولست بناس لبيت مولير كذلك يوم شهدنا فيه رواية (الحب - Aimer) تمثل : هذه الرواية الخالدة من روايات بول جرالدی يقص في جانب منها فجيعتنا . فهذان زوجان فقدوا وحيدهما وأقفر العالم حولهما ، وهوى الحزن بالأم فتعلقت بأسباب الحياة تلتمس عزاء ورجاء . وكان لهما صديق كثير التردد على البيت كثير التودد للزوجة ، ما برح يزجي لها أسباب الإغراء حتى تعلقت به وأحبته وأعلنت ذلك إلى زوجها ، وطمعت إليه في أن يرد لها حريتها لتلحق بصاحبها من غير أن يلحقها عار أو ضم . وعبثاً حاول زوجها ردها إلى حمى الزوجية والواجب . ثم هدته الفكرة إلى أن ينزل عن الجهاد وأن يدع المحاولات ، وأن يظهر كأنه لا يعنيه فراق زوجته . وأبلغها أنه أجابها إلى حريتها ، فهي طليقة تفعل ما تشاء على ألا يبقى عنده منها في البيت أثر . وجمعت الزوج متاعها وكل ما كان في الدار لها ، وأرادت أن تستأذن في الانصراف ، فذكر لها زوجها أنها نسيت شيئاً لا يصح أن يبقى بعدها ، وأعطاهها صورة وحيدهما الذي غادرها وغاله الموت منهما ، وطلب إليها أن تحتفظ هي بها ! وحدقت الأم إلى الصورة ثم ردت طرفها إلى زوجها تسأله : أحقاً أن ذهابها ينزع حتى هذه الذكرى المقدسة من نفسه ؟ ! وكان جواب الرجل الجريح في عزته ، الجريح في أبوته ، أنها هي التي تريد في سبيل هواها أن تمحو من كل نفس ذكرى فتاها . وكانت هذه الذكرى هي التي ردت إلى الأم أمومتها وإلى الزوجة زوجيتها ، وهي التي ربطت بين هذين القلبين برباط مقدس لا يستطيعان ، وإن حاولا ، منه فكاكاً .

لست بناس ذلك اليوم . ولست بناس عبرات خنقتني ولا سبيل إلى حبسها وإن حبست صوتي أن يجھش بالبكاء إشفاقاً على جارتى التي ترى على المسرح مأساة فجيعة الأم في وحيدها من جديد تمثل ، فتحاول ما أحاول عبثاً من حبس صوتها خجلاً من الجمهور وضناً بالفن أن يفوته . وخيل إلى زماً أن الخير أن تغادر المكان . وأشارت بين

فصلين بذلك إليها ، فإذا هي أشد حرصاً على شهود هذه الرواية وأشد حباً للمسرح من أجلها . وكذلك كانت الكوميدي فرانسيز ، حتى في إسالتها العبرات الصادقة من مآقينا ، تمد يد الفن المحسنة فتجعل من كل عبرة بلسم شفاء لأشد جرح نفوراً . وكذلك كانت وستبقي بحق آية من آيات مجد فرنسا ، وكنت أنا على حق حين اتخذت منها لصاحبتي أبرع وسيلة في باريس للسلوة .

وكما أنك تتخطى طريق الأوبرا ما بين معبد الموسيقى (الأوبرا) ومعبد التمثيل (الكوميدي فرانسيز) ؛ فإنك إذ تسير في اتجاه الطريق نفسه ما تلبث بعد خطوات أن ترى أمامك المعبد الأكبر للنقش والتصوير ؛ إذ تقابلك البوابات الضخمة المؤدية إلى الفناء الفسيح ، فناء متحف اللوفر ، وإلى حدائق التويلرى البديعة الجمال بقوس نصر الكاروسل وبالتماثيل الكثيرة الجميلة المنثورة فيها ، وبأشجارها المكتملة النماء . وبفسقيات الماء يدور من حولها الأطفال يلعبون . وكنت قد رأيت منذ نزلنا باريس أنه لا يحفل بنا أن نزور متحف اللوفر في أيامنا الأولى ، وألا نزوره قبل زيارة غيره من المتاحف . بل رأيت ألا نعجل بزيارة المتاحف ؛ ففيها دائماً هبة ورهبة ، ونحن في حاجة إلى رواء وبهجة . لذلك اخترقنا التويلرى أول زيارة لنا إياها ميممين ميدان الكونكورد ، وتقوم وسط جوه الأوربي الكثير الثقل مسلة الأقصر الفرعونية التي لم تعرف قبل انتقالها إليه ما تقلب الجو وما عبته ، وإن عرفت مدى ألوف السنين التي شهدت كيف تظل على معبد آمون وعلى معبد الأقصر وعلى آيات من مجد الفن الخالد الباقي . ووقفنا على إفريز حديقة المسلة نسرح البصر في الميدان الفسيح تقوم في جوانبه التماثيل الكبرى ، ومن بينها تمثال مدينة ستراسبور كان إلى ما قبل الحرب الكبرى متشجاً جانبه بالسواد ، وها هو ذا اليوم كغيره من التماثيل قد زال عنه السواد منذ استردت فرنسا الألزاس واللورين واستردت ستراسبور معها . وتقوم مع التماثيل نافورتا المياه البديعتان ترسلان بالمياه صوب السماء من أفواه السباع المتقابلة . وولينا وجهنا نحو الشانزليزية مقابل حديقة التويلرى ، فلم يبلغ البصر مدى هذا الطريق العظيم عند قوس النصر الأعظم . وعن يميننا امتد شارع رويال منتهياً بكنيسة المادلين المهوبة العمارة في غير جفوة ولا قسوة . وعن يسارنا تخطى البصر نحو السين ليقع على قصر بوربون دار مجلس النواب الفرنسي . ما هذا كله ؟ ! أين هذا في مصر وأين هذا في أوروبا بل في العالم كله ؟ ! ما هذا الجمال والجلال ؟ ! وما هذه العظمة الباسمة اختيالا وتيهاً ! إن هذه المجموعة التي نشهد لمجموعة فذة في عالم العمارة وفها ، وهي بحاجة لكي

تنال النفس ربيها من بهائها إلى عشرات بل مئات من الزيارات لا تزداد النفس بعدها إلا تعلقاً بها وشغفاً باستجلاء بديع الدقائق في صنعها . مع ذلك فهذا الميدان الفسيح المحيط بكل هذا الجمال قلّ من يقف فيه اجتلاءً لجماله إلا الذين قدموا باريس وزاروه للمرات الأولى . فهو على أنه متحف تماثيل وعمارة هو متحف في الهواء الطلق ، وهو متحف في وسط هذه الحركة العنيفة ما تكاد في ساعة من النهار تهدأ . ولذلك يمر الناس به سراعاً تطير السيارات بمن تقله منهم ، ويسرع المشاة إلى تخطيه لئلا تحطمهم السيارات ومن فيها . على أني بينما أشارك زوجي في الإعجاب بروعة الميدان وما فيه أسرعتُ بذكري لفتة إلى الماضي حين كان الكونكورد بعض الميادين التي خطا بباريس فيها شباني ، وحين كانت المادلين أول عمارة باريسية فخمة وقع عليها بصرى . وما عسى أن تفيد الذكرى أو ينفع رجوع الشباب في مثل موقعي ! فدلّفتنا متقين العجلات إلى الشانزليزية متخطين إياها إلى الطرق المحاذية لا يفصلها عنه فاصل ، وتزينها الأشجار تكاد تحسبها غابة لا يصل نظرك إلى آخرها . وألقينا عصا التسيار غير بعيد أن طال بنا السير فاستوقفتنا عربة أنزلتنا حيث نتناول طعام الغداء .

وعدنا بعد ذلك مرات بل عشرات المرات إلى التويلري فالشانزليزية ، وعدنا إليهما في ساعات مختلفة من الليل ومن النهار . أتراني أستطيع وصف ما تقع عليه العين منهما وما تنقله للنفس من إحساسات ومشاعر ؟ ! من العبث أن أحاول وصف مجموعات العمارة مما تقع عليه العين في الشانزليزية عند تقابل القصرين الكبير والصغير ، يمر الشارع الذي يفصلهما لينتهي إلى جسر الإسكندر أبهى جسور السين وأروعها بنسوره المحلقة يلمع في الهواء لونها المذهب ، ويسير الطريق من بعد الجسر حتى ينتهي إلى الانفاليد مثوى نابوليون ومستقر وفاته « بين أمة الفرنسيين التي أحب حباً جمّاً » كما كتب على باب قبره . ومن العبث أن أصف قوس النصر الأعظم غاية الشانزليزية وملتقى شوارع باريس الاثني عشر الكبرى ، ومن بينها طريق غاب بولونيا الذي ينتهي بك إلى مسرح ما في باريس من حياة وفن وعاطفة وشعر ورغبة . من العبث أن أصف لك هذا وكل من القصرين والجسر والقبر وقوس النصر ، يحتاج كل واحد منها إلى دراسة في الفن ودراسة في التاريخ لوصفه ، ويحتاج إلى أن تقف لذلك عنده الساعات تباعاً . ونحن أشد حاجة إلى السلوى منا إلى الدراسة وأشد حاجة للمتاع بما تنقله إلى النفس هذه المجموعة الفذة في مجموعها من إعجاب بها وبما تشتمل عليه من حركة دائمة النشاط ، حتى لخيّل لزوجي أول مرة رأتها أنها في يوم

عبد أو على حد تعبير سيدة مصرية جلييلة ، أنها في مولد النبي . والحق أن هذا النشاط الدائم الحركة في هذا الحي البديع من أحياء باريس يشعرك أنك في مثل يوم الحشر . أنت كل لحظة في وجل من العجلات ، فإذا أنت ركبها رأيتها مضطرة لأن تقف هنيهة بعد هنيهة خضوعاً لنظام حركة المرور ، ولأن تدفع من البترين ومن الجاز ما يضيق له في كثير من الأحيان صدرك ويزكم له أنفك . ثم إنك بالكونكورد والشانزليزيه ما مررت بهما صدر الليل أكثر متاعاً . في هاته الساعات حين يبدأ شيء من السكون ينسل إلى شوارع باريس وميادينها ، يمسى الكونكورد والشانزليزيه بحرراً لجياً من ضياء المساء يكسو المار بهما من غير أن يفركه ، ويبتعث خيالاته إلى كل ما ينطوى عليه الليل من نعيم ومسرة ، ويدعوه ليستمتع بنور الليل الذي لا تعرفه مدينة ما تعرفه مدينة النور . فإذا دلفت إلى الطرق المحاذية للشانزليزيه وجدت كل آن وحين ملك الحب يتمشى تحت أشجارها ، أو يستريح إلى مقعد من مقاعدها مصوراً في شاب وقتاة أكثر أمرهما متخاصرين وهما يتناجيان بوحيه ويتابعان سعيدين مسرى أهوائه . وتبدي لك هنا وهناك خلال أشجار هذه الطرق أنوار وضاء تهدي إلى ملهى فيه طعام وشراب ورقص وموسيقى ، وفيه للمتفرجين من أهل اليسار ما يخفف عنهم عبء أموالهم ، وما يحدثهم غير حديث هؤلاء الذين يكتفون بالسواء والشجر ستاراً لحبهم لأنهم لا يجدون لغير السماء والشجر الوسيلة . فإذا أغذدت في الشانزليزيه سيرك مصعداً نحو قوس النصر حتى تمر بالقصرين الكبير والصغير تقاربت في الطريق الفخم الأنوار والفنادق والقصور فلم يبق للحب المطمئن في هذه الناحية ستار ، وإن بقيت له بعد قوس النصر في طريق غاب بولونيا وفي كثير غيره من الطرق أستار . وفي هذه الناحية المهتوكة الضياء يقوم مسرح القمنا ، وملهى الليدو ، وغيرهما من متع باريس ماجن الليل أهل باريس . وقد استحدثت في هذه الناحية من المقاهي والمطاعم والبارات ما جعلها وهي التي كانت من قبل حي السادة والأستقراطية من أهل باريس ، تشبه « الجران بولفار » مسرح الديمقراطية التي سادت بعد الحرب فطغت على الأحياء جميعاً ، وإن بقي حي الشانزليزيه في ديمقراطيته مكان أرستقراطية المال الذي جد بعد الحرب لمن كانوا من قبل لا يملكونه . وهذه المطاعم والمقاهي هي أنس الشرقيين الذين يقصدون باريس ، لما تتيح لهم من حياة كلها الشبه بحياة الشرق في اطمئنانها وكسلها . فإذا أنت جاوزت المطاعم والمقاهي وبلغت قوس النصر وأدرت بصرك فيما حولك ، رأيت بساط الليل ممدوداً فوق ما سوى الشانزليزيه من كبريات الطرق ليست فيها أنوار الشانزليزيه وليست فيها حياته .

وقفت يوماً إلى جانب قوس النصر أحرق إلى النار الخالدة يتبدى ما فوق قبر الجندي المجهول لميها . لم يكن هذا القبر ولا كانت هذه النار هنا من سبع سنوات ماضية ، ومع ذلك صاراً في عداد الخلد الذي صار قوس النصر قبلهما إليه . وهما بالخلد جديران ، لأنهما يمثلان فكرة خالدة هي فكرة التضحية في سبيل الوطن . التضحية الصامتة المجهولة التي لم تفكر يوماً في أية فائدة مادية أو معنوية ، ولا فكرت في مجد أو جاه أو بقاء على الزمن . التضحية يرتضيها صاحبها باسماً سعيداً لأنها واجبه يؤديه غير منتظر جزاء ولا شكوراً ، لا لأنها وسيلة يمن بها على مواطنيه ليقتضيه ثمنها مضاعفاً . التضحية الصادقة الخالصة إخلاص الأم لابنها ، والمؤمن لله ، والإنسان للوطن . التضحية في أسمى صور التضحية وأجل معانيها . هذا المعنى الخالد جدير بأن يكون مثاله في كل نفس خالداً . وأنت لذلك تشعر أنه كان في هذا المكان منذ الأزل ، وأن فراغ هذا المكان منه قبل أن يقام فيه إنما كان تفريطاً ممن أقاموا قوس النصر وهم يعلمون علم اليقين أن لا نصر في الحياة من غير تضحية .

ومتى أقيم قوس النصر ؟ ومتى شق الشاتليزيه ؟ ومتى أقيم القصران الكبير والصغير ؟ ومتى مهد ميدان الكونكورد ؟ ومتى نسقت حدائق التويلري ؟ وكمن الأجيال أقامت قصر اللوفر ؟ نعم ! كم اقتضت هذه المجموعة نزع خلالها ونستمع بحمالها من زمان وجهد وعبقرية ؟ قل أن يعرض لنا هذا السؤال ونحن نتخطاها على حين يقضى بعضهم سنوات من حياته بل حياته كلها بتقصي أخبار هذا التاريخ العظيم الذي تنطوي عليه هذه البقعة من باريس ليست أقدمها وإن كانت أروعها ، وليست أبقاها أثراً في النفس وإن كانت أشدها أخذاً بالنظر وبهراً للب . وأنت في غير حاجة إلى كل هذه الدراسة التي يقضى فيها من شاء السنوات ليقص أخبارها ، بل أنت في غير حاجة للرجوع إلى قصص هذه الأخبار لتقدر ما ذاب من فلذات الإنسانية أذهاناً وأرواحاً وخيالات وعواطف وأذرعاً ، ليذر لنا وللأجيال من بعدنا أن نشارك هؤلاء الذين سبقونا على الحياة في ارتشاف أكبر نصيب من حياة الكون والوجود كله . إن ما يقع عليه نظرك كفيل وحده بأن يريك من هذه الأجيال ونبوغها وسمو فنها وقوة عاطفتها ومثانة أذرعها وبنائها ما يشعر أنك صغير بينها بانقطاعك عنها ، كبير معها باشتراكك وإياها في ذوق الفن والسعى لمزيد منه تستمتع الإنسانية به . حقاً ! إن الوطن ليس هو هذه الأرض التي نحفظ منذ صغرنا حدودها ونعتبر شركاءنا عليها إخواناً وأعواناً ، بل إن للآباء والأجداد وللمقابر وللرفات ، لحظاً من الوطن أعظم من حظ أرضه . وهذا الحظ هو الذي يجعل بقعة من الأرض وطناً ، ويجعل الوطنية روحاً ، ويجعل

لنا بهذا الروح إيماناً نفتديه بمهجنا وأنفسنا وأرواحنا ونتخذ له من أرض الوطن معبداً ومقاماً .
 فمن أولاء الذين أقاموا قوس النصر ، وفيم أقيم ؟ ومن أولاء الذين مهدوا ميدان الكونكوردي
 ورفعوا تماثيله ، وفيم مهد الميدان ورفعوا التماثيل ؟ وقصر اللوفر . . كم من ملوك تعاقبوا عليه ،
 ومن مهندسين صوره ، ومن رجال فن نقشوه ؟ والقصران والجسر وقبر نابليون وكل عمارة
 وكل أثر !! ليس هذا ثرى الوطن ، ولكنه حياة ألوف الأجيال من أبناء هذا الوطن .
 ولذلك يدافع عنه أبناؤهم بإيمان وحرارة ؛ لأنهم يدافعون عن آباؤهم وعن تراثهم وعن أنفسهم
 وأرواحهم ! يدافعون عن الدم الذى يجرى فى عروقهم كما يدافعون عن الأرض التى يقوم
 عليها هذا التراث المقدس عندهم وعند كل الأجيال التى تخلفهم ، والتى تطوى الرفات الغالية
 التى أقامت هذا التراث فأقامت منه للوطن هياكله ومعابده ، وجعلت الوطن لذلك أكثر
 فى النفوس قداسة ، كما جعلت النفوس أكثر بالوطن إيماناً .

هيجست هذه الخواطر بنفسى ، فأردت أن أفضى بها إلى زوجى لعلها تشاركنى فيها
 أو تدلى إلى بخاطر جديد . لكنى سرعان ما ترددت ثم أحجمت مخافة أن يثير ذكر الماضى
 شجنها بعد أن بدأ الأمل يفتح لها أحضانها ، ويعددها فى المستقبل متاعاً بجمال العالم كله
 يعوضها عن عالمها الذى ذهب . لقد سألت نفسى بعد أن اعتصمت بإحجامى بم كنت
 أجيبها لو أنها صاحت بى :

— لا كان وطن تراه رفات الأطفال وقلذات الأكباد !

على أن ذكر هذا المجد فى جانب من جوانب باريس هفا بذاكرتى إلى جانب آخر
 أشد اتصالاً بها ، ذلك هو الشاطئ الأيسر والحي اللاتينى منه . هذا الحي الذى قضيت
 فيه خير ما قضيت بمدينة النور من شبابى . ولئن كان الشاطئ الأيمن حيث مسارح
 الأوبرا والأوبرا كوميك والكوميدي فرانسيز وحيث الكونكوردي وقوس النصر ومتحف اللوفر
 والجران بولفار وما يتصل به ، قد أمتعنى أيام ذلك الشباب بما نعمت به سواء أكنت مقيماً
 ببعض أحيائه أم كنت مرتاداً إياه لأعود إلى حى الجامعة والكليات ، فإن هذا الحي العلمى
 المليء بالشباب والنشاط وبالحياة الساخرة من الحياة وبالمتاحف والحدائق ، هو الذى
 كوّن شبابى ووجه معارفى ونظّم إلى حد كبير خطة حياتى . وزادنى شغفاً بزيارته شوقاً للأماكن
 التى سرت فيها ، والمنازل التى أويت إليها ، والمعاهد التى درست بها ، والمكاتب التى ترددت
 عليها . وحديقة اللكسمبور طالما فتنّت بجمال ربيعها ، وإلى هواء هذا الحي التى تنسمت ،
 ووجوه شبابه الذين بينهم نشأت ، وإلى فنه فى متحف اللكسمبور وفى الباشيون وإلى الأوديون .

كم صفت لمثليه وكم درت حول جدرانها وتحت أقبائه ، أتعهد فيها عند فلانماريون الكتب الحديثة التي ظهرت ، وأبحث لديه عن الكتب القديمة التي اندثرت ، وأضيف من ذلك كله يوماً بعد يوم جديداً إلى حياتي وإلى عاطفتي وإلى روحي وإلى ذهني . وما كانت زوجي لتخالف عن مشيتي وأنا دليلها وقد أقمت لديها على حسن تصرفي الدليل . ومن اليسير عليك أن تصل إلى حى العلم بأن تتخطى السين على جسر الكونكورد أو جسر سولفرينو أو جسر اللوفر أو أى من هذه الجسور التي تقابل التويلرى ومتحف اللوفر ، وتكون بعد هنية في طريق سان جرمان تنحدر منه خلال أى من شوارعه الكثيرة إلى حيث تقصد عند الأوديون أو اللكسمبور أو البانثيون أو شارع المدارس أو بلقارسان ميشيل . وإلى هذه الأماكن مواضع ذكرى الشباب وطلب العلم ذهبنا ذات صباح وفي نفسى للقيامها بعد انقطاع أربعة عشر عاماً عنها هيبة ولطفة . وللوقوف بكل مكان تركت فيه بعض حياتي وترك لي على الحياة ذكراً باقياً شغف وحنين . ها نحن أولاء بشارع المدارس أمام كلية فرنسا (College de France) نصيب أمامها تمثال كلودبرنار ، وأقفلت أبوابها في هذا الفصل فصل الإجازات المدرسية . ومع إقفالها اخترق خاطري أبوابها ، وحاولت أن أستعيد في ذاكرتي صورتها فألفيتني داخلاً إليها منعطفاً عن يميني إلى قاعتها الكبرى لأستمع كما كنت من خمسة عشر عاماً أستمع إلى برجسن ، ثم داخلاً إليها ميمماً بهوها الذى يواجه الباب لأستمع كما كنت أستمع إلى دركيم . لقد مات دركيم وشغل برجسن بالدعوة للعلم ولفرنسا ، وما أزال أراى جالساً في هذه القاعات الفسيحة يتابع ذهني آراء هؤلاء الفلاسفة الجبارين ومن حولي سيدات جاوزن الأمومة وشابات لما يدركنها ، وقسس ورجال من كل الطبقات ، والكل مصغ إلى هذا الفيض من نور التفكير العلمى السامى يرتفع بصاحبه فوق كل اعتبار دينى أو غير دينى ، ويحله من كل قيد اجتماعى أو مادى ، ويخلق به في سماوات رفيعة ينسى فيها نفسه والعالم المحيط به ، ويستمتع لهؤلاء الدعاة إلى مدينة فاضلة جديدة تقوم على أسس العلم الواقعى الصحيح ، لا على صور وهمية تخلقها الخيالات والأحلام . ويخرج المستمعون من هذه القاعات تحوى كل واحدة منها عالماً كاملاً يعتقد صاحبه أنه عالم الحقيقة والكمال فلا يأبهون ساعة خروجهم لضجة الحياة المحيطة بهم ، بل ترى جماعات تسير منهم يتحدثون فيما سمعوا ويبدى كل منهم عليه ملاحظته ، وترى آخرين يسير كل واحد منهم منفرداً يحاول ذهنه أن يضع ما عرض عليه من النظريات موضع التحقيق والنقد العلمى . وهذا الاتجاه الذهني عندهم هو الذى يدعو الكثيرين منهم إلى

الاعتكاف في قهوة أو محل حلوى أو نحو ذلك يجترونها فيه هذا الغذاء العلمي الدسم يرددونه ويلبسونه وينقدونه يحاول كل منهم أن يكون لنفسه فكرة ذاتية منه تتصل بتفكيره في نظام الحياة والعالم ليجاهد في حدود طاقته كي يسمو بنظام الحياة والعالم إلى مثال فكرته .

ومن عند كلية فرنسا صعدت يسرة إلى سان جاك لأقف هنيهة أمام كلية الحقوق أذكر لديها سنوات ثلاثاً كانت خلالها مثابة درسي ومآب تحصيلي ، وأذكر كذلك أنني كتبت على مناضد مكتبتي الغنية بألوف المجلدات الحقوقية والقضائية صحفاً غير قليلة من رواية « زينب » ، كنت أجد في كتابتها فسحة واستراحة من عناء البحث والدرس . يارعى الله أيام الشباب وذكرت دائماً بالخير ! إني لأراني الساعة داخلاً إلى الدهليز المؤدى إلى المكتبة متخطياً إياه أقفز في نشاط ومرح عشر درجات أو نحوها لأكون في بهو الكلية يخاطر فيها الشباب فتياً وفتيات بين منتظر درسه وخارج منه ، ويسرع آخرون إلى هذه المدرجات الكبيرة (الأمفيتاترات) يجلسون منها في المكان الخالي ، ومنهم من يدخل في أعقاب الأستاذ ، ومنهم من يضيع زمناً من درسه ، وأكثرهم متأبط كراسه يسطر فيها ما يلقي من علم كما يراجع ما فيه من نظريات وآراء من بعد . والأساتذة في عبااتهم الطويلة وقبعاتهم الحمراء الصغيرة لا تكاد تستر إلا بعض رءوسهم يسرون في وقار ورزاة ، ومن ورائهم حاجب علق في رقبته سلسلة طويلة من معدن وهو يحمل بين يديه عدداً من الكتب قل أن يفتح الأستاذ منها كتاباً ؛ لأنه يحيط بما فيها إحاطة مدقق ناقد ذي رأى مستقل وفكرة تكونت بعد قراءة عاف هاتيك الكتب التي يحملها حاجبه واتسقت له في كمال شبابه ، ثم جعل يصقلها ويدقق في تحديداتها وينق كل ما يراه من زيف يختلط بها ، حتى إذا بك حين تسمعه يلقيها وهو يهز رأسه الأبيض الشعر الجميل المشيب ، تسمع الفكرة ملكت صاحبها كما ملكها ، فسمت به وسماها ، وتملكته بمقدار ما أحبها . وصار يقلبها أمامك في حنان وإعزاز كما تقلب أنت طفلك العزيز قضيت لياليك وأيامك في العناية به وأعانك القدر على إنجازه فصار عندك كل شيء . وصار عليك أعز من نفسك ، وصرت تتعصب له وتغامر في سبيله على حين أنت متسامح في شأن ما سواه غاية التسامح . وذكرت وأنا في موقعي هذا من كلية الحقوق ذات مساء كنت أستمع فيه لجواز العلوم الجنائية إلى العلامة الكبير جارسون ، الكبير على صغر جسمه وقصر قامته وبريق عينيه الضيقتين . وفيما هو يتحدث ضرب لنا مثلاً ، رجلاً قصد إلى قتل ملك ، فأصاب شخصاً يشبهه ولم يصبه ، أفيعاقب على جريمة قتل الملك وتطبق عليه الظروف المشددة ؟ وآخر أطلق عياراً على سرير شخص فلم يكن فيه ما جزاؤه ؟ فقلت أنا :

إن المثل الأخير هو مثل الجريمة المستحيلة ، وإن المثل الأول فيه جريمة مستحيلة بإزاء الملك ، ولكنه القتل عمداً بالنسبة لمن وقع عليه . وهنا أبرقت عينا جارسون وانطلق في فيض من الحجج بدأها بقوله : لكنى لا أسلم ياسيدى بالجريمة المستحيلة . ليس هناك شيء اسمه الجريمة المستحيلة ؛ فالركن المعنوى هو كل شيء ، والركن المادى ثانوى بالنسبة له . ولو أن الركن المادى كان الأول في التقدير لما عوقب الشروع بعقوبة الجريمة التامة ولو كان شروعاً خائباً . وانطلق في تدليله انطلاقة انقلب أمام أنظارنا أثناءها شاباً على الكلمة متواتر الحجة ناهض الدليل ، حتى كنا جميعاً في صمت ذاهل هو صمت الإجلال والإذعان . كذلك كان أستاذنا المغفور له جارسون ونحن نسمع له في شتاء ١٩٠٩ - ١٩١٠ وكذلك ارتسم أمامى ساعة وقفت أمام كلية الحقوق ، وكذلك هو الآن ، وكذلك ستبقى في نفسى صورته . وكمنبر هذا الشيخ الهرم السن الصغير الجسم الشاب القلب المتوقد الذكاء كانت تقوم منابر فحول القانون الجنائى والمدنى والتجارى والدولى وغيرها من هذا العلم الذى ينظم صلات الأفراد والجماعات والدول ، والذى يتصل من ناحية بأسمى النظريات الإنسانية والاجتماعية ، ومن الأخرى بأدق تفاصيل الحياة العملية في تفاعلها تفاعل تعاقد وخروج عليه ، وإجرام وإمعان فيه ، وحرب وما يتبعها من عدة هلاك ودمار وإجراءات تنظيم ذلك كله ، فقهون على الجمعية من سيئاته قدر المستطاع ، وتجنبها شروره ما أمكن الإنسان أن يجنب نفسه الشرور .

ما أكبر رسالة كلية الحقوق وهذه غايتها ، وعلى منابرها يجتمع النظر والعمل على سواء ! . لكن جلال الرسالة لم ينسنى حين ذكرت أيام طلب العلم مآب هذا العلم حين الامتحان . وإنى ليخبل إلى أن الامتحانات لو لم توجد لكانت علاقة الطلبة والأساتذة أكثر إجلالا من الأولين وأكثر عطفاً ومودة من الآخرين ، ولما رأينا ما فى علاقاتهم من شوائب الضغينة المستخفة من الشباب بالمشيب ، والازدراء المستكبر من المشيب للشباب . أم لعل الامتحانات ليست وحدها مبعث هذه الشوائب ؛ فلها كذلك مبعث من ثورة الشباب يحاول الخروج على ما يسميه قواعد المشيب ونظمه البالية ، ودفاع المشيب عن هذه النظم في انتظار اليوم الذى ترد الحياة فيه عقل الشباب إلى رأسه ، فيدرك أن الثورة ليست إلا كبرياء الوهم الغرور ، وأن التطور فى أناة وروية وعلى مهل حذر هو وحده سبيل الإنسانية إلى الكمال .

ومن شارع سان جاك درنا إلى طريق سان ميشيل مجتازين إليه شارع سوفلو كظته حوانيت كتب الحقوق ، وتطل نهايته القريبة من كلية الحقوق على البانشيون ، فى حين تطل نهايته المتصلة ببولفارسان ميشيل على حديقة الكسبور الرشيقة البديعة . ثم نخطينا ميدان

السوربون ووقفنا نواجه مثنوى الفن والأدب والفلسفة في نظامها العلمى المستند إلى التاريخ المظلم أكثر من استناده إلى ما في كلية فرنسا من ثورات توجه تاريخ التفكير الإنسانى وجهات جديدة . كم لهذا الاسم - اسم « السربون » - من رنة في العالم كله ! وكم لأساتذته في نفوس طلاب علمهم وفي نفوس علماء الأرض جميعاً من مكانة سامية ومقام رفيع ! وكما كنت وأنا طالب حقوق أتردد الوقت بعد الوقت على كلية فرنسا فقد كنت على السوربون أكثر تردداً ، وكان لى بالاستماع إلى بعض كبار أساتذته أمثال مسيو كروازيه ومسيو لانسون ولع خاص . وما أزال حتى اليوم أذكر هذه النعمة المظمنة الرضية التى كان يلقي بها العميد كروازيه محاضراته عن أدب اليونان وعن فلسفتهم ، حتى لتحسبه أفلاطون يتحدث إلى المشائين من تلاميذه ، وإن كان تلاميذ كروازيه كلهم جلوس في « الامفيتياتر » الكبير يتسع لعدة ألوف من بينهم الشباب والشيب ، ومن بينهم نسوة يعدلن الرجال إن لم يفقهن عدداً . وفي نعمته الرضية أسبغ عليها علمه ومشيه مزيداً من الطمأنينة والرضا كان هذا العالم العظيم يصل ما بين أدب الأقدمين وفلسفتهم وأدب عصرنا وفلسفته ، ويجمع بذلك في هذا البهو الفسيح قروناً من الزمان عدة تتالت متصلة في تتابعها على الزمان واصلة بسلطانها الذهني بين مختلف الأمم في مختلف بقاع أوربا ، بل في مختلف بقاع العالم القديم كله ، ويخلق من هذه الصلة أمام سامعيه صورة من وحدة الحياة الإنسانية على هذا النحو في مختلف بقاعه وأزمانه . وهو لم يكن ينسى في مقارناته أن يصل بين أدب الإغريق والأدب الفرنسى . لكنه كان يشير إلى مجمل من هذه الصلة تحتاج إلى تفصيل يكفله لك مسيو لانسون في محاضراته عن تاريخ الأدب الفرنسى وبخاصة أيام تأثر هذا الأدب بشعر اليونان والرومان وثرهم في عصر راسين وكورنى . وما كان أبعد بيان مسيو لانسون حين شرحه كيف استقل الأدب الفرنسى بنفسه بعد ذلك رويداً رويداً ، وكيف بنى استقلاله على أسس من هذه الصلة بينه وبين الأدب القديم ، ثم كيف تخلص في القرن الثامن عشر من هذا الأدب القديم وإن لم ينكره ولا أنكر عليه ما كان له من فضل في نهضة الأدب في فرنسا وفي أوربا كلها . إلى يسارك وأنت منحدر في الزقاق المؤدى من السوربون إلى شارع المدارس كانت تقع مدرسة العلوم الاجتماعية العليا الحرة أثناء دراستى بباريس ، ولعلها حتى اليوم ما تزال في هذا المكان . وكنا نذهب إلى هذه المدرسة مقابل اشتراك زهيد تؤديه لنستمع فيها إلى محاضرات في شؤون اجتماعية مختلفة يلقي المحاضر منها اثنتين أو ثلاثاً حسب الموضوع الذى يختاره وقد يفصل أسبوع بين المحاضرة والتى بعدها ، وقد يفصل بينهما أسبوعان أو أكثر . وكانت

هذه المدرسة أقساماً يتصل كل قسم منها بعلم من علوم الاجتماع . والمحاضرون ليسوا دائماً من كبار الأساتذة ، بل بينهم من الشبان ، ومن غير المشتغلين بالتدريس ، من تشغل أذهانهم فكرة أو نظرية خاصة يدرسونها ويلقون على السامعين نتائج دراستهم فيها ، ويطلبون إلى مستمعهم مناقشتهم فيما قد تعنّ لهم المناقشة فيه . ويقع في أحيان كثيرة أن يكون من بين المستمعين من هو أكثر تفضلاً من المحاضر ، ومن كنا نجد في الإصغاء إليه لذة ومتاعاً يشاركنا المحاضر فيهما ولا يأتى أن يعترف ، إذا هو اقتنع بخطأ رأيه أو بنقص البحث فيه ، بما أدى به إليه اقتناعه . وقد يطلب إلى المستمعين مهلة ليقوم فيها من جديد بدراسة فكرته ويلقى بعدها محاضرة يرجو مناقشته أن يكون من بين المستمعين إليها ، ليكون البحث بينهما أداة للوصول إلى الحقيقة . فالوصول إلى الحقيقة يجب أن يكون الغاية العليا التي يتجه إليها نظر الإنسان المذهب .

يقابل شارع المدارس شارع مدرسة الطب تقع فيه كلية الطب إحدى كليات جامعة باريس الكبرى . وعلى مقربة من كلية الطب تقع مدرسة الفنون الجميلة العليا . هذا خلا عدداً من المدارس الحرة ومن أهباء الجماعات العلمية يقصد إليها كبار الأساتذة يلقون فيها محاضرات علمية وفلسفية واجتماعية وأدبية ويعثون فيها بذلك إلى الذهن وإلى الحس وإلى العاطفة ما ينبه نشاطها ويدعوها للإمعان في البحث الدقيق عن الحق والخير والجمال ، مما تدعو إليه كلية فرنسا وكلية الحقوق والسوربون ومدرسة العلوم الاجتماعية العليا ومدرسة الفنون الجميلة ، وهذه المدارس والكليات الكثيرة الجمة النشاط المنصرف للدراسات العليا ، والتي تجعل من هذا الحي اللاتيني القلب الحساس والذهن المفكر والعاطفة المتقدة والفن المبدع في باريس جميعاً .

أى المجموعتين أبهى جمالا وأشد بهراً : مجموعة الحي اللاتيني هذه ، أم مجموعة اللوفر والتويلرى والكونكورد والشانزليزيه ؟ هذه الأخيرة هى الجمال البارع أمام النظر والزينة البادية لكل عين . أما الأولى فهي القلب الذى يوزع على باريس وعلى كثير من أنحاء العالم أسباب الحياة الإنسانية السامية . لذلك أحسب أن باريس بحياها اللاتينية أشد تيباً وفخراً ، وأنها تعد في مجموعته التي أشرنا إلى بعض ما فيها أكبر سبب مجدها ؛ لأنه مصدر كل مجد لها على المسرح وفي الفن الجميل وفي العلم وفي الطب وفي الحقوق وفي الأدب وفي كل ما تزدهى به باريس على كل المدائن .

وفي باريس مجموعات شتى ، مجتمع بعضها يصل بينه تجاوره ، ومشتت بعضها يصل

بينه تشابه . ومن المجموعات التي تزدهى بها باريس ازدهاءها بالمجموعتين اللتين وصفنا ، مجموعة عجائبها وآثارها وعماراتها ، من مثل كنيسة نوتردام والأنفاليد مستقر قبر نابليون وبرج إيفل والبانثيون واللوفر وما يخضع لعظمته من سائر المتاحف . وهذه المجموعة هي ما يقصد إليه زائرو باريس كما يقصدون إلى مجموعة ملاهيها في المولن روج والقول برجير والأوليا وأشباهها من الأبهاء الموسيقية البديعة التي تجتمع فيها أسباب الفن بأسباب اللهو ، وجمال الرقص بوضع الرغبات . ذلك بأن أمثال تلك المجموعة الأثرية أو تكاد ، وهذه المجموعة الناعمة باللهو والمسرة ، هي كل ما يتحدث الأجانب من زوار باريس عنه كأنه كل مافي باريس . على أنى كنت دائماً عميق الشعور بأن أقوى ما تنبض به حياة باريس ليس في هاتين المجموعتين وإن كانتا في الطليعة من مواضع فخرها . أما حياتها النابضة فهي في هذا الحى اللاتينى ، وفي تلك المظاهر التي تتصل بقوس النصر ، ثم هي كذلك في مسارحها . بل لعل للمسارح على كل مجموعة سواها فضل الاقتدار على صلة ما بين الفرنسى والأجنبى بما لا تستطيعه الآثار ولا الملاهي ، وبما لا يستطيعه الحى اللاتينى لا يتذوق ما فيه إلا شاب مقبل على العلم والفن ، أو شيخ اتصل بهما منذ شبابه ثم آلى أن يجعل منهما ختام حياته . أما مسارح باريس فتجمع من الثمرات أطيبها لتجليها على نظارتها بما يجعل منها سحراً يفتن العقول ويملك القلوب . وإن في العشرات الكثيرة من مسارح باريس لما تشهى الأنفس وتلد الأعين ، وما فيه للروح غذاء وللقلوب راحة وللقلب مسرة . فيها من ثمرات الذكاء الفرنسى أطيبها ، ومن ثمرات الذكاء العالمى أجملها . ولو أن شيئاً كان لباريس جناناً يترجم عما يدور بعقل العالم ولب الأديب وجنان الفنان ومطامع الوضع وشرة الحاكم وقسوة رجل المال ، ويكشف بذلك ما تنطوى عليه الأضالع وما يعبث بالعواطف ويلعب بالأهواء - لكانت المسارح هي هذا الترجمان القوى الصادق . ولم لا ! وهل من بين آثار الفن ما يمتاز بكثرة الفنانين الذين يتعاونون في استظهاره ما يمتاز به المسرح ؟ وهل كالمسرح فن يعبر بمثل قوته عن كل معانى الحياة ؟ إنك لتقرأ القصة القصيرة أو الطويلة فتترجم كما يحلو لك ما وضعه الكاتب من صور ومعان وعواطف وتكون أنت في الوقت نفسه بطل الرواية وبطلتها وكل شخص من أشخاصها . وإنك لترى الصورة أو التمثال فتعبره من المعانى ما يشاء خيالك متأثراً بظروف حياتك . ومثل الكتاب والصورة والتمثال غيرها من آثار الفن . فيها الفنان الذى أبدعها وأبدع ما فيها من قوة أو عظمة أو جمال ، وفيها أنت تترجم هذه القوة أو العظمة أو الجمال كما تفهمها أو كما تريد أن تفهمها . أما المسرح

ففيه الكاتب ، وفيه فنانون قد لا يقل أحدهم عن الكاتب عظمة ، يترجم كل منهم ما أراد الكاتب أن يظهره لك من الصور والمعاني . فإذا كان الكاتب عظيماً في فنه ، وكان الممثلون الذين يترجمونه لك عظماء كذلك في فنهم ، كان مشهد الرواية التمثيلية لا شك قطعة فنية نادرة الجمال .

فإذا أضفت إلى ما تقدم زينة المسرح وما يتصل به في بعض الأحيان من موسيقى تعين الممثلين خبير عون على أداء أدوارهم ، كنت ميالاً كل الميل إلى مشاركة أنصار المسرح في رأيهم في امتيازهم على غيره من الفنون ، أو بعبارة أدق في جمعه مختلف الفنون معاً لتكون أكثر قوة في أداء ما في الحياة من معان وصور مختلفة أشد الاختلاف متناسقة في اختلافها أشد التناسق .

تحدثت من قبل عن الكوميدي فرانسيز التي تعتبر في العالم كله أبرع مسارح العالم دقة فن ومثال جمال . ويلي الكوميدي في عرف الفرنسيين مسرح الأوديون . وكلا المسرحين قوميان تتعهدهما الحكومة ولا يدخلها من الممثلين إلا الذين لهم في قههم مقام محمود . لكن ذلك لا يعني أن ما سواهما من المسارح لا يمتاز هو أيضاً بمثل ما يمتازان به . بل إن كثيراً من الممثلين والممثلات الذين رفعوا للفن المسرحي في فرنسا مناره ، وكانوا نجوماً ساطعة في سماء هذا الفن في العالم كله ، قد ظلوا حياتهم أو أكثرها بعيدين عن هذين المسرحين . وهذه سارا برنار ، وهذا ساشا جيتري ، وأضرابهما كثيرون لم يلتحق أحدهم ببيت مولير أو بالأوديون . والممثلون الثائرون على عرف الفن في زمن من الأزمان والذين يخلقون في الفن ويجددون ، هم دائماً بعيدون عن أن يظلمهم علم الجماعة وإن كان كل منهم علماً يستظل به . لذلك كان لكثير من المسارح في باريس من المقام في نظر الفنانين ما للمسارح القومية ، وكان لها إلى جانب ذلك فضل الإقدام على التجديد في الفن بتمثيل روايات قد تظل عشرات السنين قبل أن تقرها هذه المسارح القومية . فإذا هي أقربها كانت غرة في جبين الروايات التي تمثل فيها ، وحازت من رضا الممثلين عنها ، وتقدير النقادين لها ، وإقبال الجمهور عليها ، ما يدلك على فضل الذين سبقوا بتقديمها للجمهور ولتقد رجال الفن .

ثم إن لهذه المسارح غير القومية فضلاً ؛ ذلك أنها أدل من المسارح القومية على تطور الروح القومية . وأنت إذا سمعت في الكوميدي فرانسيز أو في الأوديون روايات راسين ومولير وهوجو وبرنشتين فإنما تسمع المعاني الثابتة في النفس الفرنسية مما لا يسرع إليه التغيير . أما ما تسمعه في كثير من المسارح الأخرى من الروايات الجديدة ففيه مظاهر البحث

العلمى عند آخر طور من أطواره . بل بعد آخر طور من أطواره أحياناً . وفيه ما تأثرت به هذه المعاني الثابتة إلى حد كثير أو قليل حسب ما مرَّ بفرنسا أو بالعالم من صور التطور المختلفة . ولقد يدهشك أن ترى هذه الآثار مصوغة في قوالب كلها الفكاهة والمجون ، كما هو الحال في رواية (قسيسى عند الأغنياء) التى تمثل على مسرح سارا برنار ، وفي رواية (الحقيقة العارية) التى تمثل على مسرح باريس ، وفي رواية (لأول هذين الرجلين) التى تمثل على مسرح باليه رويال . وقد تكون هذه الآثار أقرب إلى الجلد منها إلى الفكاهة ، كما تراها في رواية (السجينة) على مسرح (فمينا) . على أن الفكاهة في هذا الوقت أغلب . وترجع غلبتها إلى أن الناس لا يزالون منذ أيام الحرب ينفرون من كل منظر يثير الألم ويهرعون إلى حيث المجون واللهو وما يثير في النفس شهواتها الدنيا . وكما انتقلت موسيقى الرقص من الفالس وما إليه من نغمات هادئة أكثر الوقت إلى الجازباند وما إليه من نغمات - - أستغفر الفن - بل من ضججات وحشية مضطربة ناثرة ، كذلك انتقل الفن المسرحى في أكثر دوره من رزاة الحكمة وسكينة الفن إلى ثورة الحواس واضطرابها ، ولست أدرى أى هذين الأمرين إلى الطبيعة أقرب . لكنى أميل إلى الاعتقاد بأن الفن وإن ضج وصخب ميال دائماً إلى شئ من الانساق والتجاوب أكثر مما في هذه الموسيقى وفي هذه الروايات الناثرة بالناس إلى المجون وإلى اللهو وإلى حكم الشهوات . على أن هذا المظهر من مظاهر التطور الطبيعى الذى نشأ عن الحرب له هو أيضاً قوته وإبداعه . ولقد ترى مظاهر المجون التى كان ينفر منها الذوق قبل الحرب أشد النفور قد هذبت ونظمت حتى كادت تصير هى أيضاً فناً ، بل حتى صارت بمقدرة الممثلين فناً جميلاً إن أثار في النفس الطرب المالح فلن يثير منها نفوراً أو اشمئزازاً . ولعل الزمن كفيل بالتوفيق بين هذا المظهر الجديد من مظاهر الحيوية الإنسانية وبين الفن في أرقى صوره وأسمائها . ولئن تعذر ذلك على أهل هذا الجيل ممن شهدوا الحرب ومن لا تزال آلامها وأحزانها تحز في قلوبهم وأفئدتهم حتى يطلبون في اللهو المضطرب منجاة من هذه الآلام والأحزان ، لقد يكون لأهل الجيل الناشئ اليوم والطامع بإخلاص وحرارة إلى السلام والسكينة أن يقوم بهذا التوفيق ، وأن يعيد إلى الفن المسرحى كل ما يرجو الفن من انساق ونجاوب .

وليس معنى ما سبق أن الروايات التى تمثل اليوم على مسارح باريس ليس فيها ما كتب له البقاء ؛ فمنها ما يفوق كثيراً من الروايات التى تمثل على المسارح القومية قوة ودقة . كما أن الحرب الأخيرة وما خلفت من مظاهر ليست عرضاً ضئيلاً على الحياة بقاؤه ، بل

هى وقفة من وقفات الإنسانية عند أطوار الانتقال الكبرى ، إن لم تظهر كل آثارها فى فترة قصيرة كالفترة التى انقضت بين انتهاء الحرب وهذا الوقت الحاضر ، فهى لا بد ستظهر متى هدأ غليان هذا البركان العالمى وعادت إلى الأمم قوة التفكير المطمئن الهادئ . لكن كثيراً من هذه الروايات التى تمثل اليوم فى مسارح باريس ستبقى بين آثار الفن الماضى وآثار الفن المقبل ، وكان فيها بعض نشاط لا أدرى أهو يصرف عنها بعض اهتمام الأجيال المقبلة أم يجعلها أدعى للعناية بها والإقبال عليها .

ومهما يكن مصير هذه الروايات فستبقى مسارح باريس فى المستقبل كما هى اليوم وكما كانت فى الماضى آية من أروع آيات فنتها ، وسيجد الذين يقصدون باريس فى مسارحها ما يزيد ليلها على النهار جمالاً فإذا هم غادروا هذه المسارح وقد انتصف الليل أو كاد ألقوا ليل باريس يقظاً وفنها نشيطاً ، وإذا كتب عليهم أن يغادروا باريس ناجتهم مسارحها مع ما يناجيهم من كل مافىها من فنة وجمال وسحر : إني أنا الشباب الضاحك السن المقبل على جد الحياة ولها بكل مافى الشباب من حرارة . وفى أحضان الشباب حياة ما تزال كل يوم تتجدد . وهى كل يوم خير منها بالأمس . ومن فاته الشباب فاتته الحياة . وليس الشباب شباب الجسم ، ولكنه شباب القلوب .

إذا كان للمسرح فى باريس كل هذه الفتنة فإن لفن مسرحى يتصل به ويختلف عنه فنة تزيد عند قوم عليه ، وإن لم تتل عندنا نحن أهل مصر والشرق كل هذه الخطوة ؛ ذلك الفن هو الموسيقى . ولقد يكون الجيل الناشئ بعدنا أشد منا لموسيقى الغرب ذوقاً كما أنا - فيما يخيل إلى - أكثر قدراً للأدب والمسرح الغربى من الجيل الذى سبقنا . والأوبرا هى معبد الموسيقى الأكبر فى باريس ، وهى جدية بأن تكون كذلك وفيها من روعة العمارة وجمال زخرفها ما تذهى به على أبدع الهياكل وأجمل الكنائس أيّاً كان طرازها : والقلم لا ريب يفضل بى إذا أنا حاولت وصف هذا المعبد ، كما يفضل الزائر للأوبرا فى مختلف أنحاءها للمرات العشر الأولى من زيارته إياها . وهو فى أى ناحية كان ضلاله فيها سعيد بهذا الضلال الذى يؤدى به من بهو إلى بهو ومن مقصف إلى طنف وكلها روعة تتلو روعة ، تنتقل إليها جميعاً على سلم بالغ من الفخامة حدّاً تتضاءل أمامه كل روعة . فإذا خرجت إلى شرقها المطلّة على طريق الأوبرا أخذت أنواره البديعة اللآلئ بنظرك مأخذ أنغام الموسيقى الشجية بسمعك . فإذا عدت بعد ذلك لتسمع الرواية الموسيقية التى تمثل رحت من زينة المسرح ، ومن غناء المغنيات ، ومن رقص الراقصات ، ومن موسيقى مطربة ساحرة فى نوع من البهر

تذهل معه عن نفسك ، ثم لا يردك منه إلا بهر مثله بالمفرجات المستمعات جثن إلى الأوبرا كاملات العطر والزينة ، فبعثن في جوها المرح الطروب مزيداً من المرح والطرب يجعلك تود لو أن الهياكل والمعابد كلها كانت على هذا المثال ، ولو أن الإنسان كان يجزى بعد الموت عن أعماله كما يجزى اليوم بهذا المتاع البارع عن مشقة يومه ، وكما يتلهى به المترفون إضاعة للوقت لأنهم لا يعرفون في يوم مشقة .

والأوبرا هي القمة من هذا الفن المسرحي المتصل بالتمثيل . فالتمثيل فيها تطفئ عليه الموسيقى ويطفئ عليه الغناء والرقص أشد الطغيان . وبين هذه القمة من الفن الموسيقى وبين التمثيل المسرحي درجات ، تبدأ عند اختلاط طرف من الأغاني والموسيقى بالتمثيل بمقدار لا يزيد على ما يدخله بعض الكتاب من شعر في نثرهم ، ثم تتدرج لتكتاف التمثيل ، ثم لتريد عليه ، ثم لتدنو من الأوبرا فيما تشهد من روايات بالأوبرا كوميك ، حظ التمثيل فيها أكثر ظهوراً من مثله بالأوبرا ، ولكنه قليل الظهور ومتصل بالغناء وبالموسيقى أوثق الاتصال . وهذا التدرج في معاهد الموسيقى يوازيه تدرج مثله في الموسيقى نفسها . فالموسيقى التي تسمعها في الأوبرا كوميك ليست هي الموسيقى الكبرى التي تسمعها في الأوبرا ، بل هي موسيقى أخف وزناً وأسهل مساغاً عند نفوس أمثالنا الذين لم تتصل هذه الموسيقى الأوربية بغرائزهم منذ نشأت هذه الغرائز . والغناء في هذه التفرقة كالموسيقى ؛ ولذلك نرى الشرقيين أكثر إقبالاً على الأوبرا كوميك منهم على الأوبرا ، كما أن أكثر الغربيين أشد للأولى ميلاً ؛ لأنها لا تقتضي نفوسهم وعواطفهم ما تقتضيه الموسيقى الكبرى . فأما المسارح الموسيقية الأخرى من مثل (البوف بارزين) ومسرح (موجدور) وغيرهما فموسيقاها وغناؤها ورقصها فيها من الدعابة ما يجعلك أشد حباً للهوها ومرحها منك طرباً بموسيقاها وغنائها ، وإن كانت أدوارها جميعاً أكثر رواجاً في أنحاء باريس وفي أنحاء العالم الغربي كله من الأدوار الفخمة الضخمة التي تغذي نفوس نظارة المسرحيين : الأوبرا والأوبرا كوميك .

* * *

أتراني وقد تحدثت عن بعض ما في باريس من عمارة وعلم وفن وأدب متناولاً ناحية أخرى أشد اتصالاً بالحياة ، ولكنها تنال من عناية السائح في باريس حظاً غير قليل ؟ أتراني أتناول حديث الطعام والمطاعم ؟ فالطعام في باريس فن جميل ، وطهاته هم ولا ريب من خير طهاة العالم ، حتى لتراك حين تقرأ عن فنادق لندن وفيينا وبرلين وغيرها من كيريات العواصم تقرأ من حسناتها أن طهيها فرنسي . ومطاعم باريس فيها فن تمتاز به على غيرها من المطاعم

وأكثرها له طابع خاص في عمارته وفي طريق تقديم الطعام لزبائنه وفي اختيار الأنبة التي تزيد لوناً أو آخر من الطعام مساعاً ولذة . ولخدم هذه المطاعم أدب خاص بالطعام يجعلك له أكثر اشتها . على أن لبعض المطاعم من الطابع ما يدعو الأجانب إلى زيارته ، كما يزورون اللوفر وقبر نابليون وبرج إيفل ، أو كما يزورون متحف جريفان حيث تعرض الصور الشمعية تمثل الحياة تمثيلاً حياً . وأشهد لقد كان لمشوى (الرين بدوك) ومشوى ميدان سان ميشيل من الجاذبية ما كان يذهب بنا إليهما في اغتباط وبهجة . ولغيرهما من المطاعم في أنحاء مختلفة من باريس مالهما من جاذبية لبسطة الأثاث مع إبداع الطهي أولطرافة محبة في نظامها . ولست بناس أول مرة ذهبنا فيها إلى مشوى الرين بدوك : دخلنا فإذا بنا في قاعة ضيقة لا تزيد على ستة أمتار في مثلها ، يجلس إلى موائدها عدد يزيد على الأربعين أمامهم طعامهم وشرابهم وإلى جانبهم في ناحية من المكان مشوى تدور عليه دجاجة لا يديرها أحد وهم جميعاً في جدل ومرح ، والخدم لا يكادون يشقون لهم طريقاً من بينهم لضيق المكان بهم ، ويحمل أحدهم وهو في لباس الطهارة أصناف (الهرديفر) على صورة لم يألفها قط نظرنا . فالزبدة ضخمة تزن أكثر من سبعة أرتال أو ثمانية وضعت في « ماجور » كبير يقدم إلى كل طالب (هرديفر) وتقدم معها كميات ضخمة من اللحوم والأكباد السمينة والسماك والسلطات المختلفة وغيرها مما لا يكاد الإنسان يجد بعده في نفسه للطعام مكاناً ، لولا مرح المطعم ولذة الشواء والجدل الذي لا ينتهي بين الآكلين والخدم ، جدل تشوبه النكتة الظرفية من هؤلاء ومن أولئك ، وانتظارك حتى يحىء اللون الذي طلبت ، فإذا بك حين مجيئه قد تجددت شهيتك ، وقد فكرت في طلب غيره . وهذا المطعم فيه - خلا هذه الغرفة التي دخلت إليها أول مرة - غرفة مثلها في « البدرون » وغرفة مثلها فوقها ، وكان الله يحب المحسنين . أما مشوى سان ميشيل فأفسح مكاناً وإن لم يكن أقل ازدحاماً . وغير هذين المطعمين مطاعم مختلف ألوانها مختلف طابع كل منها ، وإن ألف بينها جو باريس كله الظرف والرفقة ليتهما كانا وحدهما طابع أهل باريس فلم تشبهما شوائب تجعل الكثيرين أشد حباً لباريس منهم لأهلها .

ماذا في باريس غير ما ذكرت مما يلفت النظر ويستغفد الوقت في المتاع به ؟ أرى الجواب يسرع إلى نفسي : وماذا تراك ذكرت من باريس ؟ ثم ماذا تراك تعرف منها برغم ما قضيت من السنين فيها ؟ وهذا حق . فباريس عالم ، بل في كل ناحية من باريس عالم . ثم إن كثيراً مما أعرف منها لم يكن موضع عنايتنا في سفرنا فلم أذكر عنه شيئاً . وأنا إنما قصصت

ما كنا نزور وما كنا به نشغف ، وقصصته في إجمال ما كان لي أن أعده إلى التفصيل أو يضيق هذا الكتاب بأيامنا في باريس وحدها . وأشهد أن هذا الذي أغرقنا أنفسنا فيه من حياة باريس كان عظيم الأثر في عزائنا بما كشف لزوجي عن آفاق في الحياة جديدة ، وما جلا أمام نظرها من صور الجمال في الحياة حتى لكنا نتساءل أي هذه الصور أشد جمالاً ، فلا نجد على سؤالنا جواباً . جلست يوماً أتحدث إلى جماعة من أصحابي ، وكان لأحدهم بلندن ولع قديم دعاه يومئذ أن ينظر إلى باريس نظرة فيها جفوة وقسوة ، ثم شئت المقادير أن تنقلب جفوته وقسوته حناناً وحباً لباريس ، وقد سمعنا نفاضل بين ما في باريس فنقدم مسارعها على متاحفها ومتاحفها على عمارتها ، ونذهب في هذه المفاضلات إلى مدى بعيد . فقال :

والله يا أخي إنك لترى باريس منذ يدخلها القطار من أية ناحية من نواحيها حتى يخرج من ناحيتها الثانية ومن حين ينزل المطر من سماءها حتى يصل إلى حمم الأرض ، فلا ترى إلا حسناً يزحم حسناً ، وجمالاً يأخذ بتلابيب جمال .

وكانت لأحد كبار المصريين عبارة ظريفة رد بها على سائل يسأله : أيوافق على ذهاب ابنه في بعثة لباريس دون أن يخشى عليه الفتنة ؟ فكان جواب الكبير : وما الخير في ذهابه إلى باريس إذا لم يفتن بها ! أذهب به إليها ، فمسيرته في طرقها وشوارعها أجدى عليه في تكوينه للحياة وحسن ذوقه إياها من كل درس يمكن أن يتلقاه هنا .

على أن باريس مدينة ، مهما يكن فيها من جمال ، وحياة المدينة المكتظة بالحياة المليئة بالعجلات المشبع جوها بأنفاس الناس ودخان المصانع وبزين السيارات وكهارب الجو وكل البقايا والفضلات ، تثقل على الصدر وتدفع أهل المدن لالتماس الهواء الطلق . ونحن كنا إلى الهواء الطلق أشد من كل من سوانا احتياجاً ، فأعصابنا كانت أشد ما فينا كلالاً . والهواء وفسحة الجو خير ما يرى الأعصاب من كلالها . ومهما تكن التويلري واللكسمبور وما في باريس من حدائق كثيرة كفيلة بالتنفيس عن الناس في جو المدينة المثلث بما فيه ، فهي في جوف المدينة ، وهي لذلك متأثرة بجوها وما يحمل . لذلك أحاطت بباريس غابات وأحاطت بها ضواحي يهرع أهل باريس إليها عادة كل أحد ، وكنا نحن نهرع إليها في كل أسبوع مرات . وغاب بولونيا ألصق ضواحي باريس بباريس . وغاب بولونيا مرتع جمال ومسرح نعيم ومجمع مسرة ، تتصل فيه حياة المدينة بحياة الضواحي وحياة العمارة بحياة الغاب . فيه البحيرات تتخلل أشجاره تحترقها الطرق البديعة النظام .

وكان هذا الغاب مدينة وحده/نسقت/التكون حديقة باريس وملجأ أهلها من كل نصب ،
ومراح شبابها كلما عزهم المراح . وأهل باريس يجدون فيه من الحرية ومن ألوان المتاع ما في
الحياة الغربية مما يزيدنا للحياة حباً وبها إعجاباً .

دهشت زوجي ونحن بمارسيليا لمأى ذلك الشاب وتلك الفتاة يتبادلان قبله الوداع
ساعة اقتراقهما . أما اليوم فلم يبق لها أن تدهش لهذا الشباب المرح في زوارقه فوق سطح
البحيرات ، أوحين استلقائه على الأعشاب المخضرة بين أشجار الغاب ، أو أثناء مسيرته
تائهاً في أحلامه يتهدى لغير وجهة يعرفها ، وهو في هذه الصور كلها لا يدور بخاطره ما يدور
بخاطر الشرق أن يتوارى من المحيطين به ممن تخطوا الشباب فجاءوا بأطفالهم يستمتعون
وإياهم بهذا الجمال ، ويرون أولئك الشبان في مرج الهوى ، وأولئك الأغنياء ممتطين خيولهم
أوتسرع بهم سياراتهم ، ومرح الهوى في الحالين لهم رفيق ، فيرون في أصائل الخيل وفي
فخامة السيارات صوراً أخرى من الجمال تزيد الغاب إبداعاً وإن زجت به في غمار حياة
المدينة وجعلت الكثيرين يلتمسون في ضاحية أكثر عن باريس نائياً وسيلة للتخلص من جو
المدينة ومن مشاغليها .

وضواحي باريس من هذا القبيل كثيرة لا يعينك اختيار إحداها كلما حدثتك
نفسك بالخلوة إليها والاستمتاع بجمال جوها وغابها . ذهبنا منها إلى فرساي وسان كلو
وفنتنبلو وأنجان وسان جرمان وغيرها وغيرها ، ومتعنا في قصر فرساي بآثار لويس الرابع
عشر ملك العصر العظيم في تاريخ فرنسا ، وبحديقة هذا القصر كم شهدت من غرام
رجال القصر وسيداته ، ثم أصبحت اليوم كما أصبحت غرف القصر متاع الجمهور
الفرنسي بل متاع أهل العالم كله ، خاضعة بذلك لما تطورت إليه أفكار العالم حينما نقلت
مصدر السلطة من الملك الذي كان يعد نفسه خليفة الله على الأرض إلى الأمة التي تنصب
الملك وتنصب رؤساء الجمهوريات وتملك الأمر طراً . وإلى هذا المصير الذي خضع له قصر
فرساي خضع قصر فونتنبلو ، وإن بقي محتفظاً من آثار نابليون بأكثر مما احتفظ به قصر
فرساي من آثار لويس . فأما سان كلو وسفر وأنجان وغيرها من الضواحي فليس لها ما لفرساي
وفونتنبلو من بهاء ؛ إذ لم يكن لها من قصور أثر في التاريخ له من العظمة ما لنابليون
وما للويس الرابع عشر . لكن في هذه الضواحي جميعاً متعة للنفس وسكنية للفؤاد برواء
بهجتها ولين خضرتها ورقة هوائها ونمير مائها وما فيها من أسباب المسرة والنعم . فإذا أنت قضيت
بها نهارك وجاء عليها الليل ألفت بها من مظاهر مدينة النور شيئاً غير قليل ، وآنست في

بساتينها وفي المطاعم والمقاهى المنشورة بين غاباتها أنواراً تعبت بحجاب الليل وتدعوك إلى متاع به فيها يعوضك عن متاعك بليل باريس ، وإن على صورة ريفية إلا يكن لها ما لليل باريس من بهاء ، فلها ما لليل الريف من بهجة ورواء .

وقضينا بباريس ثلاثة أسابيع تغيرت أثناءها صورة الحياة أمام زوجى . لكنها بعد هذه الأسابيع الثلاثة بدأت تألف حياة باريس ، وبدأت تعاودها الذكرى فيعاودها من الألم ما نسيت أول ما غمرتها هاته الحياة واستدعت كل انتباهها . وأشهد أنها جاهدت لتغلب على أساها ، ولتنسى فى الحياة نفسها ، لكنها كانت ترى فى الوقت بعد الوقت ما يهيج هذا الأسى حين ترى أمماً تفيض أمومتها على طفلها حناناً وحباً ، وحين ترى الأطفال يرتعون فى الحدائق وبين أشجار الغابات ، فتبهج أمومتها الجريحة من أساها ما تجاهد بعزم صادق أن تغالبه . وكثيراً ما شعرت بهذا الجلاد النفسانى ، فجعلت كل همى أن أصرفها عنه إلى جديد ، أو أن أمحو من نفسها اليأس ولو بوهم من رجاء . وكنت أنجح أحياناً ثم تغلب الغريزة الإنسانية بمجهودى ، وتبعث إلى ما خلفت باريس من صفو الجو أمام ناظرها سحابة تسيل من عبرتها ما كان قد هدأ . وزاد فى الأمر أنافى خلال هذه الأسابيع الثلاثة التقينا بمصريين ومصريات ممن نعرف ، وتعرفنا إلى طائفة من المقيمين بباريس لم نكن من قبل نعرف . وشعرت هى بما لمبالغة هؤلاء وأولئك فى حسن معاملتها من معنى الإحساس معها وتقدير ألها ، فازدادت ألماً . عند ذلك فكرت فى ضرورة الانغماس فى بيئة جديدة تختلف عن بيئة باريس ، ويكون بينهما ما بين البيئة الفرنسية والبيئة المصرية من بون . ولم أكن أعرف ألمانيا لأختار برلين ، فأثرت أن نذهب إلى لندن ، وأن تنتقل إلى البيئة الإنجليزية لعلنا نرى فيها جديداً يشغل وينسى . وأعددنا للسفر متاعنا فى الثانى عشر من أغسطس معتزمين أن نقضى بالعاصمة الإنجليزية أسبوعاً نعود بعده إلى القارة وكان هواى أن نعود إلى بروكسل . ولم يدر بخاطرى ساعة غادر بنا القطار محطة الشمال من محطات باريس أنه سيعود بنا بعد أسبوعين إلى هذه المحطة ، وأن انتقلنا من بيئة باريس إلى لندن سيكون أكبر أثره أن يزيد زوجى لباريس حباً ، وعلى العود إليها حرصاً .

فى لندن

تقطع السفينة ما بين مصر والقارة الأوروبية فى أربعة أيام ، أى مائة ساعة . وهى تقطع ما بين القارة وإنجلترا متخطية من كاليه إلى دوفر فى ساعة واحدة . مع هذا يشعر الإنسان بتفاوت بين إنجلترا والقارة أكثر مما يشعر به بين مصر وأوروبا ، حتى ليخيل إليه أن مضيق المانش يفصل بين عالمين مختلفين . ولعل هذا الشعور يكون على أشده حين يجتاز الإنسان من مصر إلى إيطاليا أو إلى فرنسا ثم يجتاز من فرنسا إلى إنجلترا ، فأما الذين يقصدون إلى البلاد الإنجليزية من ألمانيا فلا يبلغ منهم الشعور بالتفاوت كل هذا المبلغ ، ويجدون وجوهاً من الشبه بين الأمتين لا شىء منها بين إنجلترا والأمم المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ، ذلك بأن بحر الروم هذا كان مستقر حضارات قديمة منذ ألوف السنين ومذ كانت إنجلترا وألمانيا وبلاد الشمال الأوربي كله ما تزال تعصف بها ريح الوحشية والتأخر ، وما تزال بعيدة عن أن تنال من الحضارة أى حظ أو تشاطر فيها بنصيب . وقد جمعت هذه الحضارات ، التى يطلق الأوربيون عليها افتياتاً اسم الحضارة اللاتينية ، بين مصر واليونان وروما والبلاد التى جاورتها وخضعت لها وأفادت منها . وهذه الجامعة ما تزال إلى يومنا ، وإخالها لن تزال فى المستقبل ، مبعثاً لأوجه شبه شتى بين البلاد المحيطة بالبحر المتوسط . وهذه الجامعة هى التى تجعلك تشعر من التفاوت بين إنجلترا والقارة بأكثر مما تشعر به بين مصر وأوروبا .

وأنت ترى هذا التفاوت فى كل شىء ، فى الجو وفى البيئة الطبيعية وفى العمارة وفى صور الناس وطبائعهم وعاداتهم . وكفى قبل إن الحرب الكبرى قربت بين إنجلترا والعالم ، وأزالت ما كان فى خلق الإنجليزى وطبعه من انقباض واعتزاز . وقد يكون حقاً أن بين الإنجليزى اليوم وما قبل الحرب فارق فى ذلك محسوس لكن الإنجليزى لا يزال هو الإنجليزى ، إنجلترا لا تزال إنجلترا فأنت تشعر لأول ما تتخطى دوفر ويتحدث إليك رجال الجمارك فيها أن للحياة هنا نظاماً غير الذى رأيت فى فرنسا وغير ما يمكن أن يحول بالخاطر عن نظام مصر . رجل الجمرى يحدثك فى سكينه يسألك عن سبب زيارتك إنجلترا وعن متاعك وما قد يكون فيه مما يستحق دفع الجمرى عليه . فإذا آنس الثقة بك من حديثك ونظراتك وفما قد يفيد من جواز سفرك لم يثقل فى شىء عليك وتركك تجتاز إلى القطار أشد ما تكون طمأنينة

له وثقة أنت أيضاً به . وأنت في القطار لا يسألك أحد عن تذكرة سفرك ولا عن أى شيء من أمرك . ويجتاز القطار بك الطريق من دوفر إلى لندن بين مروج باسمه الخضرة يزيد السحاب الذى يعترض جو إنجلترا في أحيان كثيرة خضرتها لينا . فإذا وقف القطار في محطة فيكتوريا وانطلق بك الأوتوموبيل في شوارع لندن ، ألفت حياة جديدة ونظاماً جديداً وإدراكاً لمعنى المدينة وحياة المدينة غير ما خلفت وراءك في باريس . وأول ما يلفت النظر من ذلك سير العربات إلى يسار الطريق ، وهى في غير إنجلترا تسير إلى يمينه . ويلفت النظر كذلك أن رجال البوليس كلهم طوال أقوياء يقظون تلمح على وجوههم سمو قدرهم لواجبهم ، وترى فيهم حقيقة ما يردده الإنجليز من أن الطريق ملك البوليس هو الذى يحمى نظامه وينفذ القانون فيه . ثم إن عمارات لندن ليست هذه المباني الشاهقة التى ترى في باريس والتى تنتظم شوارع بأكملها ، بل هى أغلب أمرها دور مكونة من ثلاث طبقات أو أربع طبقات ولا يزيد على ذلك إلا بعض العمارات في أحياء التجارة الكثيرة الحركة والنشاط . وخلال هذه الشوارع والطرق تمتد حدائق فسيحة متصلة تقوم مقام الرثة من قلب لندن وتزيد في مساحتها أضعافاً مضاعفة على التويلرى واللكسمبور وبارك منسو وغيرها من حدائق باريس ، وتخترقها الطرق تجرى فيها العجلات على نحو ما ترى في غاب بولونيا . ثم إنك ترى التجارة محصورة في أنحاء معينة ، على حين ترى أحياء فسيحة كلها منازل للسكنى تتخللها حدائق صغيرة تنفس عنها هى أيضاً . وفي أحياء التجارة لا تجد هذه المقاهى والمطاعم منظومة موائدها ومقاعدتها على رصيف الشارع ، حتى لتحسب أنك غير واجد في أنحاء العاصمة الإنجليزية كلها مكاناً تستريح إليه إذا أضناك السير وشق عليك طول الطريق . لكنك لا تلبث متى عرفت من حياة لندن بعض الشيء أن ترى في أماكن الشاى الكثيرة المنشورة في كل مكان ، والتى لا تبدى على الطريق أكثر مما تبدى أى حانوت آخر ، مواضع لراحتك ، ثم ما تلبث أن ترى في عدد كثير من أماكن الشاى هذه من أسباب الترف ، وجمال نغم الموسيقى ، ومن أدوار الرقص ، ما لا تذكر له في باريس مثلاً . وفي أبهاء الفنادق الكثيرة الكبيرة مأوى للراحة والترف قلّ في كبريات فنادق باريس نظيره . فإذا طال مقامك بالعاصمة الإنجليزية وازدادت بحياتها اتصالاً ألفت فيها من دواعى النعم غاية ما يصل إليه الترف ، ثم هو ترف غير متكلف ولا مشوب بتقليد ؛ لأنه ترف إنجليزى صميم . على أن أندية الليل التى يجتمع هذا الترف فيها هى أكثر الأمر في طبقات تحت الأرض تشعرك بما في غريزة الإنجليزى من حرص على أن يبدو أمام الناس في مظهر الجد والرهبة ، فإذا خلا إلى نفسه استغرق في كل أسباب

المتاع والنعمة لا يحول حائل بينه وبين نيل كل ما يستطيعه منهما .
 وأحسب أن الجلد والرغبة والمتاع والنعمة كلها طبيعية في النفس الإنجليزية ، وكلها ترجع إلى ما أصبح بعض غرائز الخلق الإنجليزي من الاعتزاز بالنفس والاعتماد عليها . فالإنجليزي لا يرى في الحياة رأى الفرنسي ، ولا يجعل الادخار أكبر وسائله للاحتياط للمستقبل ، بل يرى الإقدام والصبر والسعى المتواصل أكفل الأسباب التي تهيئ النصر في الحياة . لذلك تعيش إنجلترا معتمدة في عزلتها البديعة على قوة اتصالها بالعالم كله اتصالاً يكفل لها ما هي فيه من نعمة . ولو انقطع هذا الاتصال وانقطعت واردات العالم شهراً واحداً لطحنتها المجاعة . أما فرنسا وأكثر الأمم اللاتينية فحياتها وقوتها في الادخار ، وفي الخوف المستمر من المستقبل والاحتياط له . وهذا الخوف هو ما يجعلك ترى حياة الفرنسي في بيته حياة شح وإقتار وانكماش أمام شبح الفقر .

وهذا الاعتماد على النفس والاتصال بالعالم هو الذي يجعل حياة الإنجليزي عزوة مستمرة للحياة وحرصاً على استفاد ما بها من صنوف المتاع . قص على صديق سافر إلى برقة أثناء الحرب الإيطالية التركية سنة ١٩١١ ومر بالسوم ، أن الحامية العسكرية بها كانت في قيادة مصرى ، فلم يكن بها غير الخيام والرمال . فلما أقام ببرقة الشهور التي استغرقتها الحرب ثم عاد منها في طريقه إلى مصر ، ألقى قيادة حامية السوم انتقلت لإنجليزي ، وألقى خيمة القائد تحيط بها حديقة جميلة فيها حشائش خضر وأزهار ذات بهجة ، ووجد في ضيافة هذا الإنجليزي المنقطع بالصحراء كل ما يطعم الإنسان في المدينة فيه من أنواع المتاع . وما رأيت أنا من حياة الإنجليزي بالسودان يؤكد هذا الذي رواه صديقي . فإذا كانت هذه حياة الإنجليزي خارج بلاده ، وكان هذا مبلغ حرصه على المتاع بالحياة ، فليس عجباً أن تكون إنجلترا المظهر الأقوى لهذا الحرص ، ولظهور الخلق الإنجليزي بكل ما فيه من اعتداد بالنفس واعتماد عليها .

والخلاف بين الخلق الإنجليزي والخلق الفرنسي يرجع في رأيي إلى أطوار التاريخ في الأمتين أكثر مما يرجع إلى عزلة الجزر البريطانية وإلى قسوة الطبيعة عليها وعدم برها بها . فقد أرادت أقدار التاريخ ، ولعل الطبيعة البريطانية بعضها ، أن يقوم النضال بين سلطة الملك وسلطة الأمة في إنجلترا منذ القرن السادس عشر ، وأن تنتصر سلطة الأمة انتصاراً باهراً . وبرغم ما حدث بعد ذلك من استبداد الزعماء والقادة بالأمة الإنجليزية ما استبد نابلون بفرنسا ، فإن الروح القومية بالمعنى الديمقراطي شقت طريقها في إنجلترا في حين

كانت سلطة الفرد ما تزال كل شيء على القارة . والروح القومية تسمو بنفس الفرد وتجعله يسعى إلى أسمى ما تقصد إليه الحضارة من غاياتها : إلى حرية الفرد وتضامن الجماعة . والحرص على حريته ، فحرية ذويه ، فحرية إنجلترا هو الذى قوى فى الخلق الإنجليزى ما قدمنا من صفات ، وهو الذى أدى به إلى أن يجعل لكلمة الدار "Home" معنى لا مثيل له فى غير إنجلترا . والواقع أنه حينما كان التسلط لفرد على الجماعة ، وحينما كان حكم المستبد هو القاعدة التى يؤمن الناس بها نظاماً لاجتماعهم ، سواء أكان المستبد مصلحاً أم مفسداً ، فإن هذه المعانى الخلقية التى نمت فى النفس الإنجليزية منذ النضال الأول بين سلطة الملك ظلت دفينية بل معدومة فى النفوس التى كانت تؤمن بأن لا وجود لها إلا بمقدار ما يريد المستبد أن يكون وجودها . ولذلك كانت حياة كل فرد وحرية وماله فى هذه البلاد معلقة بين شفتى الحاكم ، تكفى كلمة لسعادة رجل ، وتكفى كلمة أخرى لشقائه أو للقضاء على حياته . وفى ظل نظام كهذا تنمو أنانية الأفراد غاية النمو ، فلا يفكر أحدهم فى غير نفسه ، وقلّ منهم من يفكر فى خير الغير أو يهب حياته لمصلحة الجماعة وعلى غير كره منه . فأما حيث تتحقق الحرية المدنية ، ويصبح الحكم عملاً اجتماعياً كغيره من الأعمال الاجتماعية ، فلا يبقى للحاكم على غيره أى حق ، وحيث تصبح علاقات الناس مقررّة بالقوانين بما يطمئن كل من معه إلى أن ماله وعمله وحياته بآمن من كل اعتداء - ما لم يعتد هو على غيره - فهناك يتأصل بين الناس نظام تقسيم العمل والتضامن فيه ، ويهون على الفرد أن ينزل للجماعة مختاراً عما فاض عنه من ثمراته . ولذلك تراك حيث وجدت الحضارة أشد تأصلاً رأيت الناس أشد للحرية تقديساً وللتضامن الاجتماعى سعيّاً وعملاً .

هذا ما ترى مظاهره فى إنجلترا واضحة قوية بما ترى من قيام الحرية الفردية بالنفوس قيام الغريزة ، ومن تقديسها ، حتى يعتبر أى مساس بها جريمة دونها أية جريمة ، وبما ترى من التضامن الاجتماعى الذى يجعل أغلب الأعمال ذات المنفعة العامة ، من مثل الجامعات والمستشفيات مستقلة بذاتها قائمة على تبرعات الأفراد والهيئات ، غير متصلة بالحكومة ولا خاضعة فى قليل أو كثير لسلطانها . قصصاً علينا صديق مصرى أثناء مقامنا بلندن أن فتاة مصرية كانت تتعلم فى أحد المستشفيات بها ، وأنها كلفت جمع الإعانات من الجمهور لفائدة المستشفى ، وما كان أعظم دهشتها حين مرت ببائع صحف فأعطاهما جنيهاً ، وبجزار فأعطاهما خمسة جنيهات لهذا المستشفى !

قد تدهشك ثقة بائع الصحف والجزار بالفتاة المصرية ودفعهم المال لها لمجرد إبرازها تذكرة شخصيتها ، بل لقد تدهش هذه الثقة فى فرنسا وفى بلاد كثيرة ، لكنها مظهر الحياة فى إنجلترا . فالإنجليزى يثق بنفسه ويثق بغيره . ذلك بأنه تاجر ، وبأن الثقة فى التجارة أساس النجاح . فأما من خان هذه الثقة فله الويل أكبر الويل من القضاء من

ناحية ، ومن ازدراء الجماعة الإنجليزية إياه من الناحية الأخرى ، ازدراء لا يستطيع معه أن يعيش في إنجلترا كلها . وأستطيع أن أقص عليك من مظاهر هذه الثقة وما يقابلها من أمانة الشيء الكثير مما رأيت . فكثيراً ما كنا نأخذ بضاعة من متجر ثم لا تعجبنا بعد يوم أو أيام ، فتردها فيردون إلينا ثمنها من غير أن يفتحوا صندوقها . وكثيراً ما نسينا ونسى غيرنا من معارفنا محافظ نقودهم في غرف الفندق الذى يقيمون به ، ثم عادوا فوجدوها حيث كانت لم تمسسها يد وإن كانت الغرفة كلها قد نظفت وتغير فرشها . روى لى صديق أنه ذهب يوماً ، قبيل سفره من لندن عائداً إلى مصر ، ليشتري هو وزوجه أشياء . فلما عادا إلى مسكنهما تفقد حافظة نقوده فلم يجدها ، وكان بها كل ما بقى له من نقد ! فتذاكر هو وزوجه أين دفعا آخر دفعة ، فادكرا مخزناً من المخازن الكبيرة والفتاة التى باعتهما فيه . وفى الصباح ذهبا إلى ذلك المخزن ، فلما رأتهما الفتاة عن بعد أقبلت عليهما فى ابتسام قائلة : إن لدى شيئاً لكما . وذهبت بهما إلى درجها وأخرجت منه المحفظة . وعبثاً حاول صديق أن يدفع لها شيئاً ؛ إذ رفضت أن تقضى ثمناً لأمانتها ! !

هذه هى البيئة الإنجليزية التى نزلنا فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٦ ولتقف منها على ما ذكرت . قضينا بالعاصمة الإنجليزية سبعة عشر يوماً كان إخواننا المصريون المقيمون بلندن دليلنا إليها وسلوانا فيها . وما كنت لأدعى معرفتها ولم أقم بها أكثر من شهرين ، منها ستة أسابيع فى صيف ١٩١٠ وأسبوعان فى ربيع ١٩١٢ . لذلك وقفت معرفتى بإياها عندما يعرف السائح من متاحف بلد من البلاد وآثارها الظاهرة وبعض الشيء عن مسارحها . وما كنا لنعنى بالمسارح وقد فتنتنا باريس عن مسارح العالم كله . فزرت وزوجى برج لندن حيث انبهر ناظرها بمجوهر التاج البديعة وبماسة (كوهى نور) المنقطعة النظير فى حجمها وصفائها . وحاولت أن أتسلق البرج على نحو ما صنعت فى سنة ١٩١٠ ، فصدت عن ذلك نفسى أن لم يبق لديها من تطلع الشباب ما تستعين فى سبيله بالجهد والمشقة . وزرنا المتحف البريطانى وطفنا بأبهااته وصلاته المختلفة وقفنا منها عند الصالات المصرية القديمة ، ثم هبطنا إلى صالة التماثيل فوقفت أمام تمثال إيزيس الحبيسة فى زجاجها . ما أعظم ما أخذنى من البهر أمام هذا التمثال يوم وقفت أشاهده للمرة الأولى سنة ١٩١٠ . أما اليوم وقد رأيت الكثير من التماثيل المصرية فقد سلكته فى عداها وإن بقى فى النفس من ذكرى بهرها ما يجعل له فيها إعزازاً ومحبة . وزرنا (الناشونال جالرى) ووقفنا أمام صورة لادى هملتن . وجبنا غير ذلك من أنحاء المدينة وروينا النظر بآثارها . ثم زرنا من أماكن الشاى ما كان لنا متعة بموسيقاه

ومراقصه . على أن إخوانى المصريين ، ومن بينهم أصدقائى فى السفارة وفى القنصلية المصرية ، أغننى كما قدمت عن أن أجعل من المتاحف والآثار كلها متاعى ، وجعلوا من ضواحي لندن والريف الإنجليزى مواضع نزهتنا ، حق لقد خرجنا إلى هذا الريف أكثر من اثنتى عشرة مرة فى الأيام السبعة عشر التى أقمناها بينهم . والحق أن هذه الضواحي وهذا الريف الإنجليزى البديع وما يحده الإنسان فى هامبتن كورت وفى قصر وندسور وفى غيرها من الأماكن الفخيمة من الآثار مما يصل بك إلى فرط البهر بسحر جماله وبارع فنتته .

بعد يومين من مقامنا دعانا صديق إلى نزهة على النهر ، فركبنا السيارات العامة (الأوتوبيس - أو البس على اختزال الإنجليز) إلى رتشمند إحدى الضواحي القريبة من لندن والمتصلة بها بالقطار والمتر أو « تحت الأرض » أو « الأنبوبة » (فى تعبير الإنجليز ؛ لأن النفق الذى تجرى فيه أسطوانى) وبالبس وبكل أسباب المواصلات . ورتشمند ضاحية جميلة هى طليعة الريف الإنجليزى البديع . وإذا قلت عن الريف الإنجليزى إنه بديع فأنت لم تقل فى الحقيقة شيئاً . فالريف الإنجليزى ، أو على الأقل ما رأيت منه ، حديقة متصلة تجرى خلالها الطرق العامة رصفت كلها بالأسفلت رصفاً يجعلها تصل ما بين إنجلترا وإسكتلندا بحيث يقطعها المسافر فى الأتومبيل وهو ناعم بسفره مستريح أشد الراحة له . ورتشمند ليست بعد من ريف إنجلترا بل هى بساتين تصعد من شاطئ النهر إلى مرتفع عظيم يقع عليه البصر ، فيبعث إلى النفس راحة وطمأنينة وإلى القلب سروراً وسعادة بفتنة هذا الجمال . وبين هذه البساتين نثرت مبان قليلة ، بعضها فنادق وبعضها منازل صغيرة على طراز المنازل الإنجليزية المبينة بالآجر تكتنفها من أمامها ومن خلفها حدائق تكاد أزهارها تكسو واجهة البيت جميعاً فتحيله كله زهرة ضاحكة . وجاورنا النهر وسرنا على ساطئه ، فرأينا مالا نظير له فى غير إنجلترا ، زوارق يخطئها العد أستقلها شبان وشيوخ وكلهم يجذفون فى نشاط ، وكلهم على الرياضة البدنية إقبال أى إقبال . وركبنا زورقاً بخارياً أخبرنا مضيفنا أنه يسير وغايته هامبتون كورت ، فما كدنا نتخطى رتشمند حتى تبدى الريف الإنجليزى على شاطئ النهر فى كمال روعته . ومن آن لآخر تمر ببعض الزوارق بها كل ما يجب لأدوات الشاى ، وذكر صاحبنا أن بها كذلك طعاماً يكنى أصحابه آخر الأسبوع ، أى من ظهر السبت إلى صبح الاثنين ، يهجرون أثناءه العاصمة إلى صفو هذا الجوالجميل ، مبتعدين بذلك عن ضجة المدينة وعما يفسد جوها حتى يضيق به الصدر . هذه بعض مميزات الخلق الإنجليزى المولع بالرياضة . على أن للإنجليز بالغ العذر لما يدعو ريفهم الجميل

النفس له ، ونهر التيمس نفسه قد زينته الصناعة خير زينة ، وقامت على شاطئيه دور تحف بها الحدائق تزيد زينته بهجة وابتساماً . ثم إنك حيث نزلت من هذا الريف وجدت أماكن لراحتك ولتناول طعامك وشايك ، تحسبها أول الأمر غير قادرة من ذلك على كثير ، ثم ما تكاد تدخل إليها حتى يشتملك جوها بكل ما يبعث الطمأنينة إلى نفسك . نزلنا مع صديقنا عند إحدى بوابات النهر الحاجزة مياهه تنظيمًا للملاحة فيه ، وكانت ساعة الشاي ، فملنا إلى دار مؤلفة من غرفتين هي دار خفير البوابات ، فإذا به قد وضع في رجة من الأرض أمامها بضع موائد للذين يتناولون الشاي ، وإذا زوجه وابنته تقومان بخدمة من ينزلون عندهم لهذه الغاية ، وتقومان لذلك بتحضير كل ما يلزم من فطائر وخبز وزبدة وكعك ، وتقديم ذلك نظيفاً لطيفاً تشبه النفس ويأخذ الإنسان منه ما يشاء راضياً مغتبطاً ببساطته وإتقانه ، سعيداً بالهواء النقي وبمنظر النهر وبجد الفتاة إذ تؤدي واجب الخدمة في رزانه ووقار كأنها تؤدي واجباً مقدساً . وأراد صاحبنا التبسط معها ، فأجابت بكلمة وانفلتت لترى غيرنا ممن هم في حاجة إلى خدمتها . وضحكنا لهذا المظهر من الجدل الذي إن اتفق وبساطة عيش الريف ، فهو يتنافر والشباب ، وهو أشد مع الأنوثة تنافراً . وأدبنا عن شائنا هذا دربهات قمنا بعدها إلى النهر وإلى الزورق البخاري الذي أقلنا إلى رتشمند ، ونحن - باليوم كله وبجمال الريف الإنجليزي وبهجة مناظره وبروعة الحدائق المشورة هنا وهناك ، مبعثرة خلال خضرتها دور الريف الصغيرة الرشيقة وبكل ما أحاط بنا وأمتع نظرنا - نشوة ومرح لا سبيل إلى مثلهما في جو المدينة ، وإن عوض جو المدينة الناس من أسباب المرح والنشوة ما قد يهيج النفس أضعاف ما تهيجها نشوة الريف ، ولكن على حساب الصحة وعلى حساب الأعصاب . وسارت السفينة بنا بعد ذلك بأيام بين خضرة هذا الريف البهيج حتى بلغنا هامبتون كورت مقر أحد القصور الإنجليزية الملكية . والناس أشد بحدائق القصر ولعاً . فلئن كانت طنافس القصر وبديع أثاثه وما به من صور زيتية ينال الكثير منها الإعجاب العظيم ، فإن هذه الحدائق الفسيحة الأرجاء والبحيرات الصغيرة التي تتخللها والأزهار الباسمة الألوان وما يشتمل ذلك من جو صفو رقيق ، كل ذلك يقتضي الناس أضعاف ما يقتضيه القصر من الزمن الذي ينفقونه في الضاحية . ثم إن أكثر الناس يكتبون برؤية هذه الآثار الفنية مرة ، ولكنهم مع ذلك يترددون على الحدائق وحشائشها وبحيراتها وأزهارها كلما دفعهم ملال المدينة إلى الخروج إليها لتنسم الهواء الصافي الصحيح . وفي هذه الحدائق تبسم الثغور وتفيض النظرات بمعاني المرح والغبطة ، وتعود الحياة نعيماً ومسرة يغريان بالحب وبالمودة

وبكل العواطف الرقيقة الجميلة التي تحجب إلينا الحياة ؛ إذ يهش لنا ما فيها ويجيبنا إلى ابتسامتنا لها بابتسامة كلها حنان وحب ومودة .

أما قصر وندسور ، كما يسميه الإنجليز "Windsor Castle" فلا يزال منزلاً لصيوفهم من الملوك ورؤساء الجمهوريات . وهو حصن حقاً في ظاهره . فأنت ما تلبث حين تدخل إلى فناءه أن ترى أمامك جدراناً من الحجر لم تطلس ولم تنقش ولا تكاد ترى فيها نافذة أو فجوة . وتستدير إلى بابه فيزيدك الطريق إليه اقتناعاً بأنك أمام حصن من طراز برج لندن . لكنك متى تخطيت الباب إلى الدرج فواجهتك غرف القصر وأبوابه ألفت نفسك في قصر منيف ، بدیع النقوش ، ثمين الآثار ، ملكى الغرف ، بما فيها من صور زبينة ونقوش جدرانية وصور في السقوف وآنية في غرف المائدة وسرر في غرف النوم وما إلى ذلك من مظاهر الجلال والأبهة مما ينسبك هامبتون كورت ، بل مما ينسبك فونتنبلو . على أنك ما تكاد تذر القصر حتى يعاودك الشعور بأنك أمام حصن مهيب ليس حوله ما حول هامبتون كورت من حداق غناء . ثم يصل ما بينه وبين قرية وندسور طريق قصير يقرب ما بين مقر الملك ومراح الشعب بما يرفع من معنى الديمقراطية إلى المكان الصحيح ، وما يحقق الوحدة القومية المستندة إلى سيادة الأمة وإلى رمز هذه السيادة .

كثيرة ضواحي لندن وإن لم أعرف بها قصوراً غير قصرى وندسور وهامبتن كورت . وأكثر الضواحي يبدوها روعة وجمالاً . ذهبنا إلى برين وإلى إيسبون الواقعتين على شاطئ المانش . وذهبنا إلى غيرهما من الضواحي يقع بعضها على التيمس والبعض خلال الريف غير متصل بنهر ولا ببحر ، فكنا في جولتنا جميعاً نستمتع بنضرة وبهاء وصفو جو ، وننعم خلال ذلك بأماكن الشاي الريفية الجميلة المنتشرة خلال إنجلترا مثابة للسكينة والنعمة ، على أنه لم يأخذ شيء بنظرنا في هذه الضواحي جميعاً ما أخذ منظر من أروع مظاهر التضحية وأبدعها ؛ ذلك حين عرجنا أثناء تجوالنا أنحاء الجنوب الإنجليزي مما حول لندن على قرية المسنين ، أو قرية ويتلى ، كما يسمونها هناك باسم المحسن الذى أنشأها . هذه القرية الواقعة بين نضارة ريف إنجلترا يهز القلب مرآها كما تأخذ باللب فكرة الإحسان التى دفعت مستر ويتلى إلى إنشائها . لها بوابة حديدية فخمة ، تخطيطها إلى غابة صغيرة تتخلل أشجارها الباسقة أزهار جميلة ، ويمر الطريق من خلالها نظيفاً منتظماً حسن الرصف يصل بين القرية وبينها والقرية بيوت مشيدة كلها على طراز واحد غاية في البساطة ، غاية في الحسن ، بنيت من الآجر ، وفي الطابق الأسفل منها غرفتان أو ثلاث غرف ، وفي الطابق الأعلى غرفة أو غرفتان . لكن

البناء على رشاقتة وظرفه ليس هو الذى يسبغ على القرية جمالها . فمن حول كل من هذه البيوت حديقة ظريفة غرست على النظام الإنجليزى . فيها الأزهار مختلفاً ألوانها ، وفيها الأشجار الزاهية الخضرة ما لم يذبل خضرتها قر الشتاء . وخلال الأزهار والأشجار طرق ضيقة تفصل الجازون الذى يكسو الأرض بخضرتها بعضه عن بعض ، وتجعل الحديقة تبدو كأنها خريطة مرسومة على ذوق البستاني الفنان الذى يقوم على العناية بها . وفي جانب القرية كنيسة رشيقة هى أيضاً يحيط بها فضاء يسبغ عليها ما يجب لبيوت العبادة من هبة . والمنازل والكنيسة ومستشفى القرية وما فيها من سائر صور الحياة مثورة تتخللها الحداثق والطرق ، وتنسبط بينها ساحة واسعة مغروسة كلها إلا طريقاً يمر وسطها ويقوم عند غايته تمثال مستر ويتلى منشئ هذه القرية . والقائم على زراعة الحداثق وتعهدها هم أولئك المسنون الذين بنيت القرية من أجلهم ، كما أنهم هم الذين يعمرون دار العبادة كل يوم فى أوقات العبادة وهم وحدهم الذين يقيمون فى القرية . فلست ترى فيها إلا من جاوز الخمسين على الأقل . وقد ترى فيها من أربى على الثمانين . وما أجمل منظرهم رجالاً ونساء وهم يروحون ويغدون أمام منازلهم يتعهدون الحديقة تارة ويتروضون تارة أخرى ، وهم عن هموم الحياة وآلامها بمعزل بعد أن كالت الحياة لكل منهم نصيبه من هذه الهموم والآلام .

كلا ! بل بقى لهم بعض هم الحياة ؛ ذلك أن مسر ويتلى حين فكر فى بناء قريته للذين يتجاوزون الخمسين وتضيق بهم سبل العيش ، لم يرد أن يتركهم بغير عمل ، ولم يرد أن يخليهم من كل تبعة . وما قيمة الحياة بلا عمل ولا تحمل تبعة ! إنها تصبح إذن حملاً ثقيلاً وهماً دونه كل هم . لذلك اكتفى بأن شيد القرية ليسكنوا فى منازلها وقدم لهم الماء والكهرباء والوقود والدفع ، وترك على عاتقهم العمل لكسب القوت . وإذن فعليهم تبعة ولم عمل . وإذن فلديهم شفاء آلام النفس كلها . وهل غير العمل هذا الشفاء ! وهل ينسى المكلوم القلب والمحزون كلومه وحزنه فى خير من أحضان العمل ! وهل ينسى المسن هموم الماضى وعبء الحاضر وخوف المستقبل فى شيء خير من العمل ! .

لكن التقدم فى السن يصل بالرجل والمرأة إلى تمام العجز عن العمل ، ويضطرها إلى انتظار غاية الحياة وهما ينظران إليها تفر سراعاً ولا يستطيعان إمساكها ولا شغلها . لذلك قرر مسر ويتلى أن يذهب كل من عجز عن العمل إلى المستشفى يقدم له فيه طعامه وشرابه إلى جانب ما كان يقدم له ولسواه من قبل ، ويبقى فيه إلى أن ينقل منه إلى المقر الأخير ينتظر فيه الأبدية التى قدم فى سبيلها من أنواع العبادة ما قدم .

هذه قرية ويتلى . وهى مثل من أمثال التضحية بالمال فى سبيل خير الجماعة أدت إليه فكرة غاية فى السمو والنبيل . فمن الحق أن يصل الإنسان من عمله أيام المقدرة عليه إلى ما يخفف عنه عبء العمل حين الضعف وعدم استطاعة الإنتاج بما يكفى كل حاجات الحياة . لكن نظام الجماعة الحاضرة لا يكفل هذا الحق ، وقد يكون عسيراً أن يكفله . فعلى من يؤمن به أن يعمل ما استطاع لكفالاته : فإن كان هذا المؤمن من الذين أتاحت الحياة لخدمهم أو لعملهم أن يثمر ما يفيض عن حاجاتهم فيضاً عظيماً ، فخير ما يعمل ، كفالة لهذا الحق ، أن يقوم بمثل ما قام به مستر ويتلى ، وأن يبنى قرية على طراز قريته . وأحسب أن الذين يؤمنون بما آمن به مستر ويتلى كثير ، لكن الذين يدفعهم إيمانهم إلى القيام بمثل عمله قلة فى أكثر الأمم وغير موجودين فى البلاد التى لم تتأصل فيها بعد حضارة حرية الفرد وتضامن الجماعة . وقد يكون لهم شئ من العذر حتى فى البلاد المتقدمة لضعف الجماعة فى بعض الظروف عن حماية الفرد مما قد ينزل به من هموم وكوارث . ولعل مصير مستر ويتلى نفسه ، هذا المصير المحزن العجيب ، مما ينهض حجة للأتانيين . فهذا الرجل المحسن العظيم الذى عمل لإنقاذ مئات ومئات من الذين قضوا حياتهم سعياً وجدلاً وكادت الحياة تجنى عليهم . هذا الرجل البر بالإنسانية قد مات متحرراً . ولئن بقيت قريته تشهد بإحسانه وبقي تمثاله القائم بين أولئك الذين أنقذهم من براثن البؤس يدل على سمو نفسه ، إن فاجعة انتحاره تدل على أن كثيراً من جوانب الحياة الإنسانية ما يزال لغزاً غامضاً عسيراً حله ، وإن الإحسان وإن عظم قد لا يكفى لسعادة الحياة ، كما أن المجد والمال وكل ما ينظر إليه الناس على أنه غاية من الغايات التى يسعون إليها قد تجتمع كلها للرجل ، ثم لا تكفى مع ذلك حتى لطمأنينته إلى الحياة ، فيفر منها جميعاً ويطلب الراحة فى أحضان العدم يصل إليه من طريق الانتحار .

سبق أن قلت إن أصدقاءنا المصريين فى لندن كان لهم أكبر الفضل فى اتصالنا بكثير من نواحي حياتنا وبالريف الإنجليزى البارع الجمال مما يحيط بها . وأشهد أنهم أخطونا بكل صنوف العناية ، حتى لم يكن يمر يوم لا نرى فيه جماعة منهم كل مقصدهم أن يروحوا عنا ، وأن يعاونونا على نسيان ما شعرت بإخلاصهم فى مشاركتنا فيه من أسانا . وإن أنس لا أنس ما كان لقنصل مصر يومئذ بلندن (صديقى مصطفى الصادق وأسرته الكريمة) من فضل مضاعف . ولن أنسى إلى جانب فضله إخواننا جميعاً ممن أخشى

إن حاولت ذكر أسمائهم أن تخوننى الذاكرة فلا يرد اسم أحدهم أو بعضهم ، فيكون على فى ذلك من إثم الجحود ما أرجو أن أبرأ منه . وهذه العناية من جانبهم وما اقترن بها من حفاوة شبابنا وفتياتنا الذين يتعلمون فى إنجلترا هى التى جعلتنا نمد زمن بقائنا بالعاصمة الإنجليزية إلى أكثر من الأسبوع الذى اعتزمنا بقاءه بها . وقد كان مستطاعاً أن نفد خطتنا ، وأن نذهب إلى بروكسل لنعود منها إلى باريس بعد أن ازدادت زوجى فتنة بها بعد مقامنا بلندن لو أن الأسبوع لم يمتد إلى أسبوعين . بل لقد حجزنا تذاكر العودة إلى باريس فى ختام الأسبوع الثانى ، فأصر إخواننا على أن نجيّب دعوة دعينا إليها ، فأجلنا سفرنا يومين آخرين . فلما كان الظهر من يوم ٢٩ أغسطس ركبنا القطار لنعود إلى باريس كي نقيم بها يومين اثنين ننظم بعدها رحلتنا إلى الألب وسويسرا . لكن سحر باريس كان أقوى من عزيمتنا ، فاستبقانا بها أسبوعين كاملين .

لندن - باريس - السافوا العليا

غادرنا لندن ظهر ١٢ أغسطس على قطار السهم الذهبي (The Golden Arrow) فجاء مجلسنا في ديوان به أربعة مقاعد جلس إلى أحدها شيخ إنجليزي كان غاية في الرقة والظرف . وقصته هي التي عادت بي إلى الطريق بين لندن وباريس ، ولولاه لبدأت هذا الفصل بما سأذكره عن أسبوعينا بمدينة النور . تحدث إلينا طويلاً ، فكان حديثه شهاً يدعو إلى الإقبال عليه كما يستغرق النظر تحديقته إلى الوجه الجميل الساحر . سنه أربع وسبعون سنة على قوله .

رأيناه فوددنا لو كان معنا من أمتعة الشباب بحلته الباسمة ، وتركناه عند دوفر وركبنا المانش ثم التمسناه على ظهر الباخرة ونحن على الاستماع لحديثه الظريف جد حراس . وهو بعد فخور بقوته وصحته ، محب لما في الحياة من لهو ومسرة . قال : إني أقيم بباريس أتجر في الجلود منذ ثلاثين سنة . كنت فيما مضى أسافر إلى لندن ثلاث مرات أو أربع مرات في السنة ؛ أما الآن فهبوط عملة فرنسا وغلاء الحياة في إنجلترا جعلني أزور لندن مرتين وكفى . إذ كنت قد ولدت بها على مقربة من ميدان شيرنج كروس فلي فيها عدد من الأهل غير قليل . لكنني لا أنزل عند أحد منهم أثناء زيارتي إياها ، بل أنزل دائماً بالنادي (Circle) . فلست أريد أن أخضع لرقابة أحد إن أنا تأخرت في الدخول ليلاً ، أو لذلي أي نوع من أنواع اللهو .

وكان يحدثنا وهو يتناول الطعام ويتناول معه قدين من الوسكى . ولما سأل الغلام حسابه ودفع له اثني عشر شلناً قال :

- لو علمت زوجي أنني دفعت في أكلة واحدة مائة فرنك لغاضبتني أن لم أشتري لها بهذا المبلغ قبعة تعجبها وأن أنفقتة لنفسى . لذلك يحسن أن يخفى الرجل على زوجته ما يدعو لخصومة أو مغاضبة .

وظل يحدثنا في هذا وفي مثله حتى لم نشعر بالوقت ومره بين لندن ودوفر . ولم يجد التماسنا إياه على الباخرة شيئاً أن حال اضطراب البحر بيننا وبين كل حديث ، وانتقلنا من كاليه إلى باريس في ديوان لم يكن فيه من بين شركائنا . فلما كنا بالفندق

شعرنا كأننا عدنا إلى بلدنا وأهلنا ومنزلنا . وخرجنا نلتبس بعض المسارح نقضى الأمسية به ، ففاض هذا الشعور عن أنفسنا ، وأحسنا أننا لا نستطيع مغادرة هذه المدينة في الموعد الذى ضربنا ، وكأننا منها مدنف مكبل بسحر فاتهته . وتعاقبت الأيام ، وكانت زوجى قد عرفت من باريس مدة مقامنا الأول ما جعلها تنفرد بالبحث فى مخازنها عما تريد . وأنجتنى معرفتها من قضاء الوقت معها فى مخازن اللوفر والبون مارشيه والسارتين والفصول الأربعة وغيرها مما لا أطيق عليه صبراً ، كما أتاحت لى أن أذهب إلى باعة الكتب أبحث عن جواب عن سؤال كان ولا يزال حتى اليوم يتردد بخاطرى عما صار إليه الأدب الفرنسى بعد الحرب . فقد كنا أيام مقامنا بالحي اللاتينى إبان طلب العلم نعرف الرؤوس المتوجة فى الأدب الفرنسى ، وكنا نذكر أسماء أناتول فرانس وبول بورجيه وجول لمر وإميل فاجيه وغيرهم ، وكان لمن نعجب به منهم مكان القداسة فى سويداء القلوب .

فمن هم أصحاب تيجان الأدب اليوم ؟ حقاً إن بول بورجيه لا يزال حياً ولا يزال لأدبه ما كان له من سمو المكانة . لكن فرنسا كانت غنية دائماً بهذه الرؤوس التى تعد بحق أبهى مظاهر مجدها . فمن هم هؤلاء الذين مهد لهم الخلود صفحة فى كتابه وما يزالون بيننا تهز أقدامهم قلوبنا وعواطفنا وإحساسنا ؟ سألت كثيرين ، فذكروا لى أسماء ربما ألفت أذى بعضها ولكن قلبى لم يتحرك لواحد منها ما كان يتحرك لأولئك العظماء الذين بقيت أسماؤهم مقترنة بكتبهم فى ذاكرتى وبإعزازهم ومحبتهم فى قلبى . أفيكون هذا لانصراف الحياة بى عما كان شاغل معظم وقى من مطالعة ؟ أم اهتزت مذاهب الأدب مع ما هزته الحرب الكبرى فلم يثبت بعدُ منها ما يتوج رأس صاحبه ! أم ضخامة ما يقوم به الناشرون من إعلان عن رجال القلم هو الذى ضلل الجمهور فى شأن أقدارهم ؟ لقد سمعت من هذه الإجابات غير قليل . وأعترف بأننى حتى اليوم لا أستطيع الحكم أيها أدنى إلى الحق وأصدق للواقع تصويراً .

فتتنتا مسارح باريس من جديد ، حتى لكنا نقضى أحياناً بعد الظهر ونقضى المساء جميعاً فيها . وما أكثر ما كنا نتحدث عن الموعد الذى نسافر فيه من باريس ، فإذا بنا نرى رواية لها الشهرة يقوم بتمثيلها نوابغ الفن ، فنحجز أماكننا بالمرشح الذى يمثلها قبل الموعد بأيام ، ونرى أنفسنا لا مفر لنا من الانتظار هاته الأيام حتى نشهدها . فلما انقضى الأسبوع ثم انتصف الأسبوع الثانى منذ حضورنا من لندن ، شعرت بأنه يجب أن أستجمع كل عزمى لأقهر كل ما يقوم من تردد بنفسى . وذهبت ضحى يوم إلى شركة

القطارات السويسرية فحجزت تذكرة إلى إكس لي - بن فشموني فجنييف فأتروا كن فلوسرن فميلانو فالبنديقة ؛ وبذلك خطوط الخطوة الأولى في سبيل النصر . ثم طلبت إلى الشركة أن تحجز لي مقاعد ليوم ١٢ سبتمبر فخطوط الخطوة الثانية . وإني لأذكر ما كانت تبدى باريس فيه بعد هاتين الخطوتين من زينة ، وما كان يظهر على لوحات الإعلان عن مسارحها من إبداعها الشيء الكثير مما خشيت معه أن أعود فأغير موعد السفر . على أئي غالبت كل عوامل التردد ، وبقيت على عزمي برغم ذلك كله .

ولما كانت عشية السفر ذهبت أنا وزوجي نودع غاب بولونيا ونودع باريس . وأرختي الليل سدوله ، وأضاءت أنوار الكهرباء متسللة فيما بين أوراق الشجر من ثغرات ، ومر الوقت مسرعاً كأنه بساعة أخرى ضنين . فطلبنا إلى سائق السيارة أن يسير الهويني بعض الشيء في أنحاء الغابة قبل أن ينحدر بنا وسط باريس . وكلم من مرة جزناً خلال الغابة في مثل هذه الساعة ! وكلم منع الفؤاد بما فيها من جم المعاني العذبة الساحرة ! لكن هذه الساعة الأخيرة في الغاب كانت فريدة في معانيها ، وفي عذوبتها ، وفي سحرها ؛ فكأنما كنت أرى في أثناء الشجر كله عيوناً باسمه وثغوراً متألثة وأصواتاً رخيمة تدعونا ألا نفارق هذه العيون وهذه الأصوات ، وتعدنا أن تكون أبهى جمالا وأعذب مما كانت سحرراً . وخرجنا من الغابة إلى الشانزليزيه فكأن لم نره من قبل ، وكأن أمواج النور المترامية من عند قوس النصر إلى ما بعد ميدان الكونكورد لم تكن من قبل وضاعة الضياء مثلها هذه الساعة . وأضاء برج إيفل من قمته إلى أخمصه بما لا عهد لنا من قبل به . وتبدت باريس غير باريس ، ودعانا كل ما فيها ألا نغادرها . ولولا الشعور بأننا مغادروها ولابد عما قريب ، ولولا الأنفة أن تفتنني هذه اللعوب ، لغلبت باريس عزمي ، ولطال بنا أسرها الشهى المحبوب .

* * *

غادرنا باريس صباح ١٢ سبتمبر سنة ١٩٢٦ قاصدين السافوا العليا لنمتع النظر بجبال الألب الرفيعة ، وبثلوجها وأشجارها ومنحدرات مياهها ، ولتمتع بجوها اللطيف بعد أيام تشكى الناس فيها القيقظ الذي لم يألوه وإن احتفظت غانيات باريس بفرائهن استمتاعاً بزيتنها . غادرناها وفي الجو نذر المطر ، وفي نفوس المقيمين بها رجاء أن يذهب المطر بالقيظ وآثاره . وكانت إكس لي - بن ، غاية القطار الذي أقلنا والذي يصلها بعد مسير تسع ساعات . لكن السفر في هذا الطريق لا يملّه مسافر يسير به القطار بين سفوح خضراء وغابات كثيفة ومياه جارئة ، ويخترق به الأنفاق ليخرج من كل منها إلى منظر جديد

جميل . وقد زاد هذه الطبيعة البديعة زينة أن ظلت السماء إلى ما بعد الزوال ممسكة ماءها ، وإن بقيت الشمس وراء الحجب . فلما آن للقطار أن يستدير عند أبواب الألب بدأ المطر رذاذاً ، ثم ما لبث أن هتّن منه وإبل أخذ على النظر السبيل لرؤية القمم التي تمر بها . ووصلنا إكس في منتصف الساعة الخامسة وقد سمحت السماء بفترة هدنة استطعنا خلالها أن نتقل إلى مركبة الفندق لتصعد بنا في شوارع المدينة الصغيرة الجميلة إلى أعلاها . وما كدنا نستقر في غرفتنا سوية حتى انهمر المطر من جديد بما أياسنا من مغادرة صالات الفندق وصالوناته هذه الليلة . فلما كان موعد العشاء ذهبنا إلى غرفة الطعام وأخذنا منها مقاعدنا . وما هي إلا دقائق حتى رأينا منظرًا لفتنا واستثار دهشتنا . تلك عجوز نيفت لا شك على التسعين قد جلست في عربة صغيرة أنيقة ومن ورائها من يدفع بها في البهو إلى ناحية غرفة الطعام . فلما وصلت إلى باب هذه الغرفة عاونها رجل وامرأة لعلهما من خدم الفندق ، على النزول من العربة وأسنداها لتبسط الدرجتين وسارا بها إلى ناحية مائدتها يتقدمهم شاب في أغلب الظن أنه حفيدها . وانسحب الرجل والمرأة بعد ما جلست هي بإزاء هذا الحفيد الوارث . ولما انتهيا من تناول الطعام جاء معاونها وسارا بها إلى أن أجلساها في البهو تتناول قهوتها وتشفت آذانها بسماع الموسيقى .

كم قاست هذه السيدة من هموم الحياة والامها ؟ ولقد تكون وهي في شيخوختها هذه قد فجعتها الأقدار بشر الفواجع . وقد يذكرها هذا الحفيد الذي يلزمها بصدع في قلبها ما ينفك تتفجر جوانبه بلذعات ألم لما يتدثر في ثوب الماضي ، ولما يخفف الزمن من شدة وقعه . لكنها ما تزال تحيا . وفي الحياة جمال وروعة يعوضان مما ينزل بالناس من غدر القدر . فمن الحكمة أن ننسى في أحضان هذا الجمال وتلك الروعة أحزاننا وهمومنا ، وأن نهمل منهما بما يطغى على كل ألم ويغرقه .

ولفت منظر هذه السيدة تحمل إلى قاعة الطعام وإلى بهو الموسيقى نظرنا إلى غيرها من العجائز - ما أكثرهن ! وما أرقهن ! وما أشدهن ذوقاً للحياة واستمتاعاً بها ! لا يكاد موعد طعام العشاء يجيء حتى تراهن قد لبسن لباس السهرة يبارين الفتيات البارعات في اعتدال القوام وارتداء ما يحلو لهن من الأزياء . فإذا كانت ليلة راقصة كنّ أسرع من بناتهن إلى الرقص وأكثر به حبوراً .

وكانت على المائدة المجاورة لمائدتنا عجوز حلوة النظرة بعينها الزرقاوين ، بيضاء الشعر بياضاً ناصعاً . وإنا لتتناول طعام الغداء يوماً أشرقت شمسُه وصفت سماؤه وطاب هواؤه وتعطر بأريج الزهر جوه ، إذا بها تقبل إلى مائدتها في ثوب أبيض وحذاء أبيض وقبعة

بيضاء قد ظهر من تحتها شعرها الأبيض ، وتبدو بذلك كأنها زهرة بيضاء ذات رواء وبهجة . ولو أنك نظرت إلى قوامها وهندامها وحسن ذوقها فيه لخلتها فتاة حريصة على أن تزيد جمالها جمالاً بيهاء الحلى والثياب .

لقت أولئك العجائز نظرتنا ، وكن في كثير من الأحيان موضع حديثنا أن كانت زوجي وما تزال تأسى لفقد أمها الشابة وابنها الطفل ، ترى في استفادهن الحياة وإمعانهم في المتاع بها مظهراً مؤلماً لظلم الطبيعة وغدر القدر . وكم حاولت أن أصرفها عن هذا ، وأن أرجو لها مثل شيخوختهن ، فتأبى إلا أن تجعل من ذكرها ما يصور لها تفاوت العدالة وتفريقها بين الناس بما يسلبها كل معنى العدالة . وكم رأيتهما إثر أحاديثنا في هذا الشأن وبعد مشهد العجائز مقبلات على الرقص آخذات بأكبر نصيب منه ، شاردة البال سارحة في تيهاء الخيال بما لم أكن أشك معه في أنها كانت تقول فيما بينها وبين نفسها :

- ما بال هؤلاء الجدات قد خلعن عذار الوقار وتهالكن على أنواع اللهو . هل حسبن أنهن مستعيدات في أحضانهن شرح الصبا وروعة الشباب ، أم هن يزعمن المقدرة على خداع الحياة .

إنما العيش صحة وشباب فإذا وليا عن المرء ولي
ألا إنه لأولى لأولئك العجائز اللاتي انحدرن إلى خريف العيش أن يترققن بأنفسهن ، وأن يقضين ما بقى من أيامهن في سكونية وهدوء . فلن يستطعن ، ولو حاولن ، أن ينعمن بأيامهن وأيام غيرهن . وليحمدن الله الذي مد في آجالهن على حين تتحطم على صخور القدر أعمار شباب كانت الحياة أشد حاجة إليهم وإليه ، وكانوا وكن للحياة زينة ومجداً .
أم لعل الذكرى وحدها لم تكن مثار هذه الصورة للمشيب في نفسها . لعل مثارها ما رسمته الحياة وما ثبتته منذ طفولتها في نفوسنا صورة للمشيب ، ولمشيب النساء بنوع خاص . فهن قد فرغن من الحياة ونصبها والعيش وهمومه ، فلم يبق لهن إلا أن يرتجحن حسن الختام بالانقطاع لله لعبادته وتقواه . وفي انتظار هذا الختام يقضين بغيتهن في الحياة راكعات ساجدات قانتات ليغفر الله لهن ما تقدم من ذنبهن وما تأخر . هذه الصورة التي كانت تمثل في نفسي جلال المشيب وهيبته ما تزال تذكرني طفولتي ، وتذكرني شيوخ قريتنا يجتمعون في المسجد قبيل الفجر لقراءة الورد حتى يحين أداء الفريضة ، فيصلون ثم ينصرفون يسبحون بحمد الله ويقدمسون ، ويقصون على من حولهم قصص الماضين ، حتى تحين فريضة الظهر فيؤدوها في المسجد جماعة كما يؤدون سائر الفرائض . وما تزال

هذه الصورة تذكرني كذلك عجائز القرية وهم كل واحدة منهن أداء فريضة الحج وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم والانقطاع بعد ذلك لله بالعبادة . على أن الحياة الغربية تأبى هذه الصورة وتنفر منها وتنكر على العجائز الفراغ من الحياة ونصبها والعيش وهمومه ؛ لأنها لا ترى في الحياة هماً أو نصباً إلا يعوض منه ما في الحياة من رقة وجمال ، وترى أن من الحق لكل إنسان أن ينعم بالعيش إلى آخر لحظاته ، وأن ينظر إلى الموت على أنه عمل من أعمال الحياة هو آخرها ؛ وإنما نكون سعداء إذا استطعنا أن نستمتع بحياة طويلة وموت جميل .

وأفضيت غير مرة بهذه الخواطر إلى زوجي ، وذكرت لها أن الأيام لا تضيق بالشباب عن أن يتمتع بها إذا تمتع بها من تخطوا الشباب . فالأيام رحبة الصدر تقبل على كل من أقبل عليها ، وتدبر عمن قطب لها جبينه ، لا تفرق في ذلك بين شاب وشيخ ، وبين رجل وامرأة . وهي في ذلك محسنة عادلة . وإذا كان الشيوخ والعجائز قد تخطوا إلى خريف الحياة ، فللخريف جمال وروعة لا يقلان عن روعة الربيع وجماله . وما دنا أحياء فللحياة علينا حق الاستمتاع بها ؛ والصادف عنها كالجالس إلى صديق وفي ، ثم هو مع وفاء صديقه منصرف عنه إلى التفكير فيما لا يرضاه . بل لعل الشيوخ والعجائز أحق أن يستمتعوا بالحياة من الشبان والغانيات . فهؤلاء ما تزال عليهم للحياة واجبات السعي والعمل ، وما يزال شبابهم لذاته متاعاً لهم يغنيهم عن التماس غيره من أسباب المتاع . أما أولئك فقد أدوا للحياة واجبها ، وقد أصيبوا في الحياة بألوان من المحن تؤلم ذكراها ، ثم هم قد تحدر شبابهم في غيب الماضي ؛ فالحياة عبء ثقيل عليهم حمله إذا هم لم يلمسوا نسيان أثقاله في المرح والمسرة . والحياة كريمة محسنة لا تأبى المرح على عجوز ولا على شيخ إذا هدته حكمته فطلب من ألوان السرور ما يحمل الهرم ويجعله كالصبا بهاء وروعة : ولعل الإنسان إذا جلس إلى واحد من الذين تريدهم صورة المشيب في نفوسنا على الانزواء فرآه مقبلاً على الحياة محباً لها ، يغتبط بجلسته معه مقدار اغتباطه بجلسته إلى شاب ذكي أو سيدة جميلة ، في حين هو إذا جلس إلى متزو عن الحياة زاهد في العيش لم يجد فيه مما يحسبه جلالاً وهيباً إلا ما يجده في الدور المهدامة الخبرة التي تظن بأصوات الحشرات الكريهة ، ولا تسمع فيها شداً مشجياً كالذي تسمعه في القصور القديمة والآلهة بأسباب الحياة والنعمة .

لم يقف أمر العجائز اللاقي بعثن هذه الصور والتفكيرات إلى نفسينا عند من رأينا في الفندق . فقد تنفس الصباح بنا في إكس لي - بن - عن جو صحو جميل زاده انهمار

المطر صدر الليل صحواً وجمالاً ، فأنحدرنا إلى ميدان المدينة العام حيث ينبوع الماء المعدنى يشربه المستشفون ، وحيث تقوم عمارة الحمامات المعدنية ، وحيث كازينو المدينة على مقربة منه ، فألفينا حول العيون من العجائز كثيرات جئن مستشفيات مستمتعات . ولم نقصد نحن إكس للاستشفاء ، وإنما قصدنا إليها أن كانت فاتحة الطريق إلى الألب الفرنسية ومناظرها البديعة وهوائها المحسن الصحيح الذى ينه الأعصاب وينشطها ويزيد فى الحياة ما يزيدنا حرصاً عليها . لذلك آثرنا أن نطوف المدينة ومجاوراتها ، فركبنا عربة يجرها جواد واحد كى تمشى على مهل يسمح لنا بالتأمل فيما نرى . وتركنا لسائق العربة أن يكون دليلنا ، فذهب بنا أول ما ذهب إلى « حلق سرفوز ” Les Gorges de Cervoz“ وهى أخدود عميق فى الأرض يحيط بجانيه صخر أملس رأسى الانحدار تجرى فيه المياه المنحدرة من الجبال وتكسوه أشجار كثيفة . وهبطنا من العربة ودخلنا إليه ، وأخبرنا السائق أنه منتظرنا عند غايته . فلما بلغنا أول الأخدود ألفينا زورقاً صغيراً جداً يتسرب فوق الماء خلال الصخور الرأسية متجهاً صوب الانحدار من النبع حيث يهوى الماء إلى أخدود الحلق مضطرباً هائجاً ينثر من حوله رشاشاً كأنه البخار الصاعد من الماء الفائز ، ويبعث فى عزله المكان الهادئ فصلت الأشجار بينه وبين حياة الطبيعة خريراً أجش كأنه نزع الكلم من خيفة أن تفصل الحياة بينها وبينه . وبلغ الزورق الانحدار وسدّت فى وجهه السيل ، ولم يبق له إلا أن يعود ، فارتقينا بضع درجات صنعت من الخشب ، وجعلنا نسير والماء ، ثم نصعد درجات أخرى نسير بعدها فوق الصخر ، وبقينا السقوط إلى الماء درابزون من الخشب امتد حتى بلغ بنا مصدر النبع حيث فورة الماء الأولى . ومن هناك خرجنا ، فألفينا عربتنا فركبناها ، فسار السائق بنا يتسلق هضاب هذه المنطقة المحيطة بإكس ، حتى إذا بلغ إحدى قممها أشار إلينا لنجتلى فيما حولنا هذا المنظر الجميل ، منظر الجبال الخضراء السفوح تطل على بحيرة بورجيه تلقى عليها شمس ذلك اليوم الجميل أشعتها فيحيلها الموج لجيئاً متكسراً . وعدنا إلى الفندق حين استوت الظهيرة لنخرج منه بعد ذلك مصعدين فى المرتفعات الذاهبة إلى ما بعد إكس ، وكلها مزارع خضر ترتع فيها النعم وتقوم خلالها عزب صغيرة يقطنها مزارعون من أهل هذه الجبال يقومون فيها بأعمال الزراعة ، ويعنون بتربية الماشية والدجاج عناية خاصة . بين هؤلاء المزارعين وخلال مزارعهم شعرت بحياة جديدة انتقلنا إليها بعد باريس ولندن . حياة صحيحة نتنفس برئيتها فيها هواء نقياً يتخلل مسام الجسم جميعاً فينعش الروح والأعصاب ، ويرتفع بالنفس لشارك الكون

فى كل حىاته ، ولتشعر أن هذه الكائنات كلها من ماء ونبات وشجر وحيوان وطيـر ، تحيا كما نـحيا ، وتنفس كما نـتنفس ، وتنمو كما نـنمو ، وتحس كما نحس ، فتألم وتطرب وتبهج وتنقبض ، وتشاركنا ونشاركها فى هذا الكون هو كله وحدة متصلة نحن بعضها ، كما أن هذه الأحياء المحيطة بنا بعض آخر مثلنا ، أو لعله أعظم فى هذه الوحدة منا مكاناً .

وفى صبح الغد ركبنا سفينة بخارية تخطت بنا بحيرة بورجيه لنزور عند شاطئها الثانى ديراً ينقطع للعبادة فيه جماعة من الرهبان ، ويحتوى بعض آثار فنية قيمتها فى قدمها . على أن ما يحيط بالبحيرة من جبال هى مقدمات الألب الفرنسية أسبع على البحيرة من الجمال ما يكفل متاع من لا تعنيه آثار الأديرة . فلما عدنا كان القطار الذى سافر بنا إلى سان جرفيه يقوم على أثر عودتنا . على أنا آثرنا أن نقطع الطريق عند آنسى لنبيت بها ونطوف فى صباح الغد أنحاء بحيرتها ، ثم نستأنف السفر ظهر ذلك اليوم . ودعانى إلى هذا الإيثار ذكرى ما قرأت فى جان جاك روسو عن آنسى وبحيرتها وما حولها ومنطقة شامبرى كلها . هذه المنطقة التى كان عاشق الطبيعة يتحدث عنها فى تهديج وإجلال ، ويرى فيها مبلغ ما أبدع الله على الأرض من جمال ، ولم يكذب الواقع ظنى ، فقد دارت بنا السفينة فوق بحيرة آنسى محاذية الشاطئ حيناً ، متخطية البحيرة من جانب إلى الآخر حيناً ، راسية عند بلاد هذا الشاطئ البديع ، مفضية فى دورتها ذهاباً وجيئة خمس ساعات كاملة استولى علينا البهر فيها جميعاً ، ولم ندر أية بقعة من بقاع هذه الشواطئ يمكن أن تفضل الأخرى . وقامت القرى المتصلة بها بين ألوان من الخضرة ذات رواء ولين وبهجة ، تظللها سماء تغرى روحها بالمحبة والعطف ، وتفتح النفس لحياة هذا الجو الفسيح كله جمال وهوى ، وأشهد لقد انقضت الساعات الخمس ، وعدنا إلى آنسى ، وتناولنا فيها طعامنا وركبنا القطار ولا حديث لنا إلا بحيرة آنسى وسحرها وفتنتها ، مما كان جديراً بأن يسبيننا عن أنفسنا ويمسكنا فى إحدى قرأها المحبوبة ، لولا ثقنى بأننا فى الألب نتخطى من جمال إلى جمال ، فالخير فى أن نهل من هذا الجمال جميعاً .

وبلغ بنا القطار لفاييه ، ثم صعدنا منها بالقطار الصاعد إلى سان جرفيه أقمنا بها أربعة أيام خالدة على الزمن فى النفس ذكراها . ها نحن أولاء فى منطقة جبلية لا تعرف السهل ولا البطيح ، وإن عرفت الغابات وعرفت السفوح الخضراء مراعى النعم ومراتعها . وها نحن أولاء نقضى الكثير من وقتنا نتغلغل خلال هذه الغابات ونسلك هذه السفوح ، ونندمج بكل وجودنا فى هذه الطبيعة نال منها متاعاً وصحة ، ونقف فيها عند ساكنى هذا الجبل

يأنسون فيه بوحدتهم وسكينتهم أنس أهل المدينة بضجتهم ومضطربهم . على أن للطبيعة في كثير من هذه الأنحاء الجبلية بدائع تزار لتقدس الطبيعة فيها كما يقدس باري الطبيعة في هياكل المدن ومعابدها . ذهبنا يوماً إلى ثلوج بيوناساي "Glaciers de Bionassay" نشهد روعة الجبل عند قلله روعة تأخذ بالقلب والنظر والفؤاد . وثلوج بيوناساي ترتفع عن سطح البحر ألف متر وبضع مئات من الأمتار ، وترتفع عن سان جرفيه ألف متر أو نحوها . ركبنا القطار الصاعد ، فجعل يزحف متسلقاً الجبل بين الغابات تكسو أشجارها السفح من ناحية وتكسو الوادي المنحدر إلى يسار القطار من الناحية الأخرى . وعلى جوانب هذا الوادي تبدى للنظر منازل منعزل بعضها كأنه صومعة الناسك ، مجتمع بعضها كأنه عزبة وسط واحة من الشجر . ويزداد البطء بالقطار في زحفه وتسلقه كلما قام السفح أمامه عمودياً أو يكاد ، فيتيح لنا بطؤه أن نحسلى ما حولنا من جمال الجبل وسفوحه وأوديته . وظللنا كذلك ساعتين ثم بدأنا نشعر بالجو تهوى حرارته ، وبالسيدات يضمنن إليهن معاطفهن . وبأم أو جدة لعلها تطلب إلى فتاه أن يلبس المعطف . وبعد ساعة أخرى وقفنا في بطيح فوق الجبل به مطعم يتناول المسافرون فيه طعام الغداء ويحدون في نبيذه وسيلة للدفع ، ثم يخرجون منه ليمتعوا نظرهم بهامات الجبال الرفيعة كسها الثلوج تيجاناً ناصعة البياض إلى ما تكسوها به الشمس ساعات بزوغها ومغيبها من تورد فحمة قدم قان ولهب مستر . والجبل الأبيض من بين قلال الألب هذه جميعاً يسمو عليها رفعة هامة ، ويكسوه الثلج بتاج من له تيجانها جميعاً . فلما أمتع السفر من هذه المناظر أنفسهم عاد القطار زاحفاً متسلقاً ، حتى بدأنا نقرب من نفق طويل تتجلى من ورائه ثلوج هائلة كساها ضوء الشمس نوراً لألاء انبهرت له نواظرن ، وخشعت قلوبنا وأفئدتنا ، وبقينا محدقين إلى الثلوج لا نملك أن نميل بالنظر عنها أو أن نفكر في شيء سواها . تلك ثلوج بيوناساي التي قطعنا ويقطع المئات والألوف كل صيف هذا الطريق إليها عدا من يصلونها متسلقين الجبال على أرجلهم من الألبين ومن ينسجون على منوالهم . واستمر القطار يتسلق فيقترب من هذه الفوهة الوحيدة التي تبدى روعة هذا المنظر الباهر من خلالها ، على حين يصدم النظر هذا الجبل الأحرد الذي يحرقه النفق فلا يقف عنده ، ويعود ليحرق إلى ما بهره وسحره . وجزنا النفق ، وظل القطار يسير بعده زمناً حتى بلغ غايته . وهبطنا منه ثم صعدنا إلى ناحية الثلوج ، وحاول بعضنا أن يبلغها ، فإذا الطريق إليها وعر مخوف ، وإذا بنا نقف زمناً أمامها مشدوهين في ذهول ، ثم يحاول بعضنا أن يصل ما بينه وبينها بحجارة يقذفها نحوها قهوى في وسط

الطريق ولا تباعها . وآن للقطار أن يؤوب إلى سان جرفيه ، فتركنا هذا المنظر الجميل إليه ، فاخترق بنا النفق ، ثم انطلق مضاعفاً سرعته حتى بلغ البطيح . ثم اجتازه وهبط بنا إلى حيث بدأ في الصباح صعوده ، وترك لباصرتنا هذا المنظر العظيم الجميل ما نكاد نذكره حتى يتبدى أمامنا بسفوحه وأوديته وأجاره ومنازله وبطيحه وثلوجه .

والموقع الثاني الذى يحج الناس لزيارته هو شاغور ديوزا أو حلق ديوزا ، إذا أردت الترجمة الحرفية للاسم الفرنسى (Les Gorges Diozas) وإذا قلت ديوزا فلا تذكر بجانبها سرفوز ، ولا تذكر شاغور حماما ، ولا تذكر أكثر مساقط المياه فى الجبال مما رأيت ؛ فلديوزا جمال وجلال لا يدانيه فى تلك المساقط جمال أو جلال أو هيبة . دخلنا إلى حديقة أخذنا من غرفة فيها تذاكر تسمح لنا بزيارة المساقط . ثم تخطينا أبواباً وسرنا فى طريق ما لبث أن استدار فزج بنا فى جوف الصخر ، حتى كنا نجعل البصر فى كل ما حولنا فلا نرى إلا صخوراً يشقه الطريق كلما صعدنا وإياه زاد بنا فى جوف الجبل إيغالا . وبعد زمن سمعنا زئيراً تتجاوب أصداؤه فى هذه الفجوة من الجبل يصدمه جانب منها فيتلقاها جانب . ذلك زئير الماء المنحدر من قمة هذا الجبل فوق صخر لا يكاد يطمئن إليه حتى يسقط هاوياً فوق صخر آخر ، ثم فوق صخر ثالث ورابع . وهو فى كل واحدة من سقطاته يجار ويزار فلا يغنيه ذلك شيئاً ، بل تدفعه السقطة إلى السقطة حتى يهوى إلى حضيض يجرى فيه غديراً ساكناً مستسلماً خاضعاً لإرادة الإنسان ولأهواء الأرض التى يجرى بها . وتابعنا نحن إلى جواره مسيرتنا فوق مسالك من الصخر يفصلها عن الهاوية درابزون حاجر .. ثم أصبح الصخر ولا سبيل للمسير عليه ، فمهدت الصناعة طريقاً من خشب يرتفع ثم يستحيل سلماً تصعد إليه لتصل إلى مهبط الماء أول سقوطه . وهذا المهبط عال يرتفع مئات الأمتار ؛ ولذلك يقتضى صعود الدرج فيه عناء ومشقة ، كما يتعرض الإنسان فيه لرذاذ هذا الماء الذى يستحيل كله رشاشاً أول ما يصدمه الصخر ساعة سقوطه عليه أو اصطدامه بجوانبه . على أنها مشقة لا تصد ، ورذاذ منعش يزيد النفس بهذا المنظر ابتهاجاً وغبطة ، ويدعوك لتتابع الدرج مستنداً إلى الدرابزون تارة وإلى جدار الصخرة تارة أخرى معجباً بالماء وانحداره وزثيره ، وبالصخر الأملس ينبت الماء العشب والشجر من خلاله ، وبكل هذه الفجوة كأنها البئر ، نقر فى الجبل صاعداً فوق الأرض يتدفق الماء من قاعه فيروى ما حوله ويكسوه جميعاً بهاء وخضرة ونضرة .

وغادرتنا سان جرفيه إلى شامونى ، غاية الألب الفرنسية وأكثر البلاد الجبلية ارتفاعاً

وشهرة . وفي طريقنا إليها بالقطار الكهربى شققنا جبلاً جرداء وصخوراً بعضها فحمية اللون تلمع في تموج يجعلك تقتنع بأنها كانت أخشاب غابات هائلة أتت عليها ريح صرصر عاتية فعصفت بها ، فضمزت تحت الأرض أكداس جذوعها فاستحالت جبلاً ، فتفحمت فصارت ما ترى . وبين هذه الجبال وجبال بعدها انطلق القطار في أودية خضر ممرعة يروى بهاء خضرتها النظر الظمى بعد تلك الجبال الفحمية إلى خضرة نضرة . فلما كنا بشامونى أحاطت بنا حياة الألب في أوضح صورها ومعانيها . يلبس الناس غير ما يلبس المصطافون في البلاد الأخرى ، ويحمل الكثيرون في أيديهم عصياً في أطرافها حديد مدبب تعاونهم على تسلق الجبل . ولا تكاد تغادر المحطة وتميل بعد ميدانها إلى الشارع الرئيسى حتى ترى نهراً يجري خلاله متدفقاً ماؤه الأبيض اللون كأنه ثلج ما يزال . وعلى حافة هذا النهر قهوة يقصد إليها من لا يريد المكث بأماكن الشاى والحلوى . على أن القهوة وأماكن الشاى قل قاصدوها في شامونى ؛ لأن زوار هذا البلد يقصدون نهارهم إلى الجبال يرتقونها ويستمتعون بجوها الصحيح ، فإذا كان الليل وجدوا في فنادقهم ما يغنى أكثرهم عن القهوة وعن مكان الحلوى .

وزرت كثيراً من البلاد الجبلية المحيطة بشامونى . على أنا لم تكن لنغادرها دون أن نزور بحر الثلج بها . وتسلك بنا القطار الصاعد بعد ظهر يومنا الأخير بالمدينة إليه فوق سفوح قل شجرها ؛ أن كان جو المنطقة تكثر الثلوج فيه ، وتنحط حتى في الصيف درجة حرارته إلى ما تتعذر معه حياة الشجر والنبات . فلما بلغ القطار غايته سرنا غير بعيد ، فبصرنا بين جبلين بواد منخفض يملؤه موج جامد لا حركة به . واستوقف هذا الموج نظرنا ، فقبل لنا هو بحر الثلج ، وطلب إلينا أن ننزل إليه وأن نسير فوقه . والذين يغريهم هذا النوع من الرياضة يلبسون فوق أحذيتهم جوارب حتى لا ينزلقوا فوق الثلج فيصيبهم من صلابته أذى ، ويمسكون بأيديهم هذه العصى المدببة الأطراف يستعينون بها على حفظ توازنهم في مسيرتهم . وهبطنا حتى كنا عند شاطئ هذا البحر العجيب ، ولم تطاوعنا أنفسنا على هذه الرياضة الخطرة ، وإن كان من أهل هذه المنطقة من يعاونون عليها جماعة الذين تغريهم المخاطر ليقولوا إنهم فعلوها أكثر من معونتهم جماعة المولعين بالرياضة والذين يقبلون عليها تدفعهم فطرتهم وسليقتهم أكثر مما يدفعهم التطلع أوحب الغريب من الأشياء . وبرغم ذلك كله وبرغم الذين تحطوا الجبل إلى بحر الثلج ، فقد ظل بعضهم وفي نفسه ريباً أن يكون هذا الوادى كله بحراً ، أو بالأحرى نهراً من الثلج ، حتى كان المتراضون فوقه يكسرون قطعاً منه يقذفون إلينا بها ليزيلوا كل شك من أية نفس تظل بها من الشك خلعة . وهو بالأحرى نهر الثلج ،

كانهر في مجراه وفي طوله وفي عدم انفساح شاطئيه حتى لا تراهما العين معاً . لكن أهل هذه المنطقة يسمونه بحر الثلج إجلالاً وإكباراً ، ولأن موجه الجامد هو بموج البحر أشبه .

وأن لنا بعد مقامنا بشاموني أن تغادر الألب الفرنسية ، وأن تغادر فرنسا إلى سويسرا نبدؤها بجنيف . وفيما نحن نعد عدتنا لسفر يكاد يستغرق يوماً كاملاً استعدت أمام ذاكرتي هذه الأسابيع السبعة التي انقضت منذ سفرنا من مصر ، والتي قضينا منها بفرنسا شهراً كاملاً ، فتوجهت بكل قلبي إلى هذه البلاد الجميلة وإلى عاصمتها مدينة النور ، وإلى جبال السافوا شاكراً بإخلاص أنعم الله علينا فيها أن أحالت لون الحياة أمام عيوننا فقصت فيه على صورة اليأس البشعة السوداء ، وأن بدلتنا منها صورة فيها من بسيمات الرجاء ما كنا نلتئم قبل سفرنا خيطاً منه فلا يساورنا أمل فيه . وعاد بنا القطار الكهربائي من شاموني إلى لفاييه ، ثم انتقلنا إلى قطار آخر سار بنا ثلاث ساعات وسط زروع نضرة وجبال تتبدى قريبة آونة ، بعيدة أخرى ، مخفية حتى ما يكاد يلمحها البصر ثالثة . ومن هذا القطار انتقلنا إلى قطار ثالث بدأ مسيرته مع الليل حتى بلغ بنا الحدود بين فرنسا وسويسرا . ثم نزلنا جنيف ، وأقلتنا خلالها عربة إلى فندق روسيا ، أول الفنادق المطلّة على بحيرة ليمان . وما هو إلا أن قاربت العربة جسر الجبل الأبيض الذي يجتاز البحيرة على مقربة من منابع نهر الرون وعند جزيرة جان جاك ، فإذا الجسر كله أعلاه وأوسطه وأسفله عرس من الكهرباء يهز القلب بالفرح والنشوة ، ويجعل الحياة أمام النظر كلها ضياءً وأملاً ، هنالك توجهت لله بشكر خالص مرة أخرى . لقد حشدت باريس ولندن أمام النظر والذهن والخيال فنوّاً من ألوان الحياة جعلت زوجي ترى الحياة بغير العين التي كانت تراها بها قبل أن تحل فيهما ، وتشعر بأننا قادرون على الحياة بالغة ما بلغت قسوة الحياة بنا ، والألم والأذى اللذان يصلان منها إلينا ؛ فكان لها من ذلك شفاء للنفس والروح . ولقد تكشفت السافوا العليا عن صور من جمال الطبيعة ومن صفو الهواء بما فيه شفاء للجسم وأعصابه . وها نحن أولاء ندخل من سويسرا في محفل الطبيعة الأكبر ، فيه غذاء للروح والجسم معاً . فلنسارع إلى النهل من ذلك ، وإلى الاستمتاع بعرس الطبيعة الدائمة الابتسام . لذلك ما كدنا نصعد إلى غرفتنا بالفندق حتى جلست أنا وزوجي إلى شرفته المطلّة على هذا العرس ، وعلى بحيرة ليمان ، وعلى سماء وضاء بنور القمر ، وعلى جو معطر بأريج الجمال ، وعلى حياة كلها نعمة كافر بالحياة من ينكرها ، نستمتع بذلك كله فيدخل المتاع به إلى نفوسنا وقلوبنا وأرواحنا فيضاً من السعادة .

فى سويسرا

« هنا يتبدى الزمن القصير السعيد من أزمنة حياتى . هنا تجىء اللحظات السريعة الهادئة التى تجعلنى أقول إننى حييت . إيه أيتها اللحظات الثمينة المأسوف عليها ! ارجعى . . ارجعى فاسترجعى مسراك الهنىء . انسابى فى ذاكرتى إن استطعت أكثر بطشاً مما كنت فى سرعة مرك . ما عسائى أعمل لأطيل كما أريد هذه الذكرى البسيطة المؤثرة . ولأقول وأعيد الأشياء نفسها ولا يعمل قارئ بإعادتها كما لا أمل أنا باستعادة ذكرها ! ولو أن ما كان يومئذ كونه الوقائع والأعمال والألفاظ لاستطعت وصفه وتبليانه . ولكن ما ترائى أذكر عن شىء لم يقل ولم يعمل بل لم يأخذ أى مكان من الفكر . . ثم هو قد ذيق بل أحس ، وليس لدى ما أستظهر به سعادتى غير ذلك الإحساس نفسه ؟ كنت أستيقظ مع الشمس وكنت سعيداً ، كنت أنتزه وكنت سعيداً . كنت أرى أمى وكنت سعيداً . وكنت أتركها وكنت سعيداً ، كنت أقطع الغابات والأحراش ، وكنت أجوب الأودية ، وكنت أقرأ وأسكت وأشغل فى الحديقة وأجمع الفاكهة ، والسعادة تتبغى حيث كنت ولا تستطيع تركى لحظة ، لأنها لم تكن فى شىء معين بل كانت ممتزجة بنفسى وروحى » .

هذه صورة من اعترافات جان جاك روسو عن مقامه بالشارم على مقربة من شمبرى . وهى صورة صادقة للزمن الذى أقمنا بسويسرا . فقد كنا نجوب خلالها وكنا سعيدين . وكنا ننزل بلادها وكنا سعيدين . وكنا نهبط أوديتها ونصعد جبالها ونحترق ثلوجها ونركب بحيراتها ونستنم هواءها ونستمع بأرج عيبرها ، وكانت السعادة تتبعنا حيث ذهبنا ؛ لأنها لم تكن فى شىء معين مما نرى أو نسمع ، بل كانت ممتزجة بنفسينا وبروحينا .

والحق أن سويسرا جديرة بأن تبعث إلى أشد النفوس انقباضاً ما يزيل انقباضها ويفرج كربتها . فقد حبتها الطبيعة موقعاً وجواً وجمالاً لا يدانيه فيما رأيت من ربوع العالم كله جمال . جبالها وبحيراتها وغاباتها ذات حياة لا يعرفها غيرها من البحيرات والغابات والجبال ؛ ذلك بأن أهل سويسرا مزجوا حياة الطبيعة بحياتهم ، وحوروا فى صورتها بما يلهمه ذوق الجمال للإنسان ، فنفخوا فى سفوح الجبال وفى أغوار صفائحها وفى أعالي قللها روحاً تجعل بين الإنسان والجبل شركة وثيقة الاتصال طويلة العمر قديمة التاريخ ، أكبر غرضها التعاون

على المزيد مما حبت الطبيعة الجبل به من جمال ليزداد الإنسان بالجبل وجماله متاعاً ، وقد امتدت يد الإنسان إلى البحيرات كذلك ، فجعلت في لجها وفي جوها الرقيق الصافي مثل هذه الشركة في المزيد من الجمال ومن المتاع به ، وبلغ من متانة هذه الشركة بين الإنسان والطبيعة في سويسرا أن الإنسان يعجز اليوم لو حاول تصور أحدهما دون الآخر ، عجزه لو أنه حاول أن يتصور جسماً حياً لا روح فيه ، أو روحاً يقع عليه الحس ولا جسم له تتصل بالحس أجزأؤه .

وهذه الشركة القديمة التي تعاقبت عليها الأجيال قد ربط بينها روح تضامن في سبيل غرض واحد وغاية مشتركة ، هما بعث الحياة الإنسانية في هذه الكائنات الطبيعية ليجلي على أهل الأرض جميعاً صورة نادرة من الجمال الحي يستمتعون بها أحراراً متساوين متاعاً مشتركاً . فأنت لا ترى صومعة معلقة في جبل تحدث عن زاهد منقطع إلى الله وعبادته . ولا ترى قصراً منيفاً تحيط به أكواخ الأتباع والخدم محدثة عن أبيقورية مترفة أثر لا يعرف من الحياة غير نفسه ، فإذا رضيت نفسه فعلى الحياة وعلى الإنسانية العفاء . بل أنت ترى الجمال مثوراً بأيدي الأجيال لمتاع من يتعاقب من الأجيال ، وأنت ترى قوى الطبيعة كلها مسخرة لمتاع من شاء المتاع من أهل الإنسانية كلها . وأنت تحس حيث كنت من سويسرا كأن كل شخص من أهل هذه البلاد قد عاون جهد طاقته ليزيد في جمالها وليبعث إليها من جمال روحه كل ما حوت روحه من حب إياها وتعلق بها ، وكأن كل إنسان رأى في شيء منها نبوءاً عن ذوق الجمال الوليد معه قد آلى على نفسه إلا أن يزيل النبو وأن يغرس مكانه من الجمال مزيداً . والطبيعة العادلة المحسنة التي لا تنسى جزاء إنسان بإحسانه قد جزت هذا الشعب عن حبه الجمال أن ازدادت هي الأخرى جمالاً ، وأن ازدادت في أحضان الألب تبرجاً وزينة ، فثلوج سويسرا وأقمارها ونجومها وشموسها ليست ككل الثلوج ولا ككل الأقمار والنجوم والشموس ، بل تكاد تكون من صناعة رب فن ماهر أبي عليه فنه أن يكون بين هذه الثلوج والكواكب وبين ما على الأرض من جمال نشاز ، فشارك الإنسان في عبادة الجمال بأن جعلها أبهر زينة وأبرع جمالاً .

وهذا العرس الذي قابلتنا به جنيف على جسر الجبل الأبيض تتخطى فوقه بحيرة ليمان في اختراقها مدينة كالفن ، هو بعض هذه الشركة المبدعة بين الإنسان والطبيعة ، وإن لم يكن أروع ما أبدعت الشركة من منشآت فذة . وبحيرة ليمان من جنيف إلى مونتريه أكبر شاهد على افتتان السويسريين في المزيد من جمال البحيرة وشاطئها ، على

حين ترى شاطئها الفرنسى لا يلقى من العناية إلا ما تلقى جبال السافوا العليا . على أن يمان وحدها بدعة ساحرة تتغنى مياهاها ، والجبال المحيطة بها والغابات الكاسية سفوح هذه الجبال ، والسماء التى تظل الجبال ، ولج البحيرة جميعاً ، بأنغام من ألوان باهرة تلتهمها العين فيطرب لها القلب وتنتعش بها النفس ، ويشعر الإنسان معها كأن روحه وفؤاده قد استحالا أوتاراً توقع هذه الأنغام عليها . وما كان أشد طربنا لهذه الأنغام حيث سرنا على شاطئ يمان ، أو صعدنا فى الهضاب المحيطة بجنيف ، أو جددنا فى زورق فوق البحيرة أو دارت بنا بواخرها لمتنع السائحين بمناظر شواطئها الساحرة ! وما كان أشد اختلاف هذه الأنغام باختلاف ساعات الليل والنهار ! ما كان أرقها وأجملها ساعات المغيب حين يتجاذب الليل والنهار حتى يتعانقا ثم يفنى أحدهما فى صاحبه . قضينا بجنيف ستة أيام نستمتع بهذه الصور جميعاً فى مرح ونشوة ، ولا يدع لنا استمتاعنا بها أن نتابع ما كان يجرى فى عصابة الأمم ، وكانت منعقدة وقتئذ ، وكانت جريدتها تصل إلينا مع الصباح وقبل طعام الإفطار . فلما فكرنا فى مغادرة جنيف إلى لوزان ولم نكن قد ارتقينا واحداً من جبالها ، استشرنا دليل « بذكر » ، كما استشرنا رجال الفندق ، فأشارا علينا بالصعود إلى جبل سالييف . فلما كان الصباح رأينا الجو مكفهاً . فترددنا بعض الشيء ، وسألنا أهل الفندق : أهم يتوقعون مطراً ؟ قال أحدهم :

- كلا ! فجو المطر تملؤه روائح السمك كأنما هو يقترب من سطح البحيرة لينعم بالماء الجديد الساقط إليها ، وليس فى الجو من هذه الروائح شىء .

وتخطينا جسر الجبل الأبيض Pont de mont Blanc إلى شارع الرون بالميدان الذى يقوم منه الترام إلى فيرييه ليتصل بالقطار الصاعد إلى السالييف . ومر الترام أثناء صعوده شوارع جنيف ، بميادينها الفسيحة وطرقاتها الواسعة وبالخضرة الباسمة رجاء المطر ، العابسة فى هذا الجو المقلب الجبين بالسحب . ثم غادرنا حدود المدينة إلى الضواحي الناضرة التى تقوم فى أحضان الألب على الحدود بين سويسرا وفرنسا . فلما اجتزنا هذه الحدود صعد إلى الترام عامل الجمرى الفرنسى ، وسألنا عن جواز السفر ، وكان معنا فى القطار إنجليزيان ألقى عليهما هذا السؤال ، وكنا جميعاً قد تركنا الجواز فى فنادقتنا إذ لم يكن يدور بخلدنا أن نزهة ساعات قصيرة نتخطى فيها الحدود لنعود بعدها أدراجنا تحتاج إلى ما تحتاج إليه السياحات الكبيرة من عدة . وبعد أن ألح الرجل فى ضرورة عودتنا من حيث أتينا تسامح وتركنا نسير فى طريقنا . وما أدرى أكانت تطيب نفسه بمثل هذا التسامح لو أننى

كنت وحدى ، أو لو أنه كان معى مكان السيدات الثلاث اللائى نظرن لهذا التصرف بدهشة باسمة ، ثلاثة رجال بالغة حجتهم ، ساحر بيانهم !

وارتقينا القطار الصاعد إلى جبل ساليق ، فجعل يتسنى الجبل بين سفوح قامت فوقها الأشجار الباسقة والشجيرات الياقة ، وأزهار قليلة منثورة من حين إلى حين . وكنا كلما تقدمنا ازداد الجو عبوساً وتساقط السحاب فى الأودية بين القمم والجبال المختلفة . على أن تلبد السماء من فوقنا وانحدار الغمام فى الأودية المنخفضة دوننا لم يبلغ من الكثافة أن يحجب النظرة الياقة المحيطة بنا . بل ظللنا فى ارتقائنا نعم بمنظر رقيق من ورق الشجر الأخضر لما تعد عاديات الخريف منه إلا على قليل . وكنا وكان المسافرون معنا يملؤنا الأمل أن يبدد خيط من ضياء الشمس هذا القتام الذى كان يزداد تراكما كلما ازددنا ارتفاعاً . وكيف نرجو ، إذا لم ترسل الشمس من نورها الوضاء ما يجلو الجو ، أن نرى ثلوج الجبل الأبيض التى طالما نعمنا من قبل بمرآها ، أو أن نمتع النظر بخضرة الجبال التى لا يعلوها الثلج . لكن القطار وصل إلى غايته وأملنا ما يزال سراباً ، فصعدنا الجبل إلى فندق قائم فوقه كأنه صومعة الناسك فى عزله ، ودخلنا غرفة الطعام نتناول غداءنا ، فالفينا من فيها قد أقفلوا أبوابها ونوافذها اتقاء البرد القارس فى هذه الظهيرة العابسة .

وفندق الساليق كفنادق الجبال فى بساطته ورشاقته ، لا ترى فيه آثار نعمة المدن من فرش وثيرة وأبهة ووجاهة . لكنك تجده ظريفاً فى بساطته ، نظيفاً كل النظافة ، على مناضده مفارش بيضاء نقية من غير تطريز ، وآنية بيضاء نظيفة ، وكل ما تحتاج إليه فى طعامك وشرابك . ولقد أخذنا مقاعدنا إلى إحدى مناضده وأدركنا نظرتنا نلتمس الخادم فلم نجد أحداً ، فانتظرنا هنيهة ثم إذا باب فتح وظهرت منه فتاة لا أحسبها تزيد على الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها ، وإذا هذه الفتاة هى وحدها القائمة بخدمة كل الذين يتناولون طعام الغداء ويبلغون الخمسة عشر عدداً ، تأتيهم بطعامهم وشرابهم وتقوم بحاسبتهم وأهلها من ورائها يطهون الطعام لتقدمه هى إلى متناوليها .

كانوا يحدثوننا من سنين خلت أن صبياناً أو فتيات كانوا سبب سعادة المتاجر التى يحلون بها ، حتى كان التجار يتنازعونهم لتسعد بهم متاجرهم ، وكنا بعد أن تحدثت من حولنا سنو الصبا نذكر هذه الأحاديث فنضحك منها ساخرين . ولو أن كلا منا أتبع له أن يرى صبية فندق الساليق وأشباهها من الصبايا القائمات بشؤون التجارة فى

مدائن أوربا وأريافها لما سخرنا من هذه الأحاديث ، ولصدقنا بما يحمله الصبا في إرادته من أسباب السعادة .

وصية الساليف ليست ذات جمال فائق ، وليس لها من الدلال ما يهوى إليه الفؤاد ؛ بل هي ككل الريفيات ، كثيرة البساطة شديدة الحذر ، تضمن بالابتسامة مخافة أن تنهم بالخلاعة ، وتقل من الكلام حتى لا تكاد نجيبك إلى ما تسأل عنه بجملته كاملة . وأرنبة أنفها المستديرة تربي على قصبة الأنف بما لا تقره قواعد الجمال . وهي بعد في لباس جمع إلى الذوق الرفيع حشمة الفقر . وليس لها من رشاقة الباريسيات أو خفة بنات المدن كثير ولا قليل . لكن في أردائها مع ذلك أسباب سعادة هذا الفندق المنقطع في قمة الجبل والذي يأوي إليه مع ذلك من الناس غير قليل .

ذلك بأنها صبوح الوجه ضاحكة السن ، وبأن الطبيعة قد جعلتها من ذلك بما يعجز أمهر فنان في صناعة الجمال . ترى وجنتيها فتدهش لتوردهما ، وترى صدغيها فتدهش لبقاء لونهما الأبيض المشرب حمرة . ولها شفتان دقيقتان لا يطاوعانها إلى عبوس لأنهما دائماً الابتسام . ونظراتها البريئة وقوامها اللدن ما تزال فيهما كل معاني الطفولة المتدرجة إلى ريعان الصبا ، الجامعة إلى الطهر التزيه أسباب النضارة الودود . فإذا أقبل ذلك كله عليك رأيت ابتسامه وسمعت حديثه وإن لم تبتمس هي ولم تتكلم ، ورأيت إقباله عليك فأقبلت عليه في تल्पف وابتسام ، وسرك ما تقدم صاحبه لك لأنها هي التي قدمت لك .

ولذلك أقبل كل الذين نزلوا فندق الساليف على طعامهم أكثر اشتاء له وحرصاً عليه ، خلا شاباً وفاتة لم يكونا أقل ممن سواهما على الطعام إقبالا ، ولكنهما كانا معرضين عن الصبية لاشتغال كل واحد منهما بصاحبه . ولقد بلغا من ذلك أن ترك الشاب مقعده بإزاء الفتاة إلى مقعد بجانبها ليكون أقرب إلى نيلها . وما كان ليلاحظ ذلك عليهما أحد أو يأخذهما به ، والناس يحترمون الحرية احترام إجلال وتقديس ، لولا عجائز جلسن بإزائها وجعلن يتهايمن لكل ما يرينه من حركاتهما . وكأتما كانت بين العجائز ثقيلة السمع ، فكانت بعض عبارات حديثها لا تخفى على الحاضرين وإن لم تغير من أمر الشاب والفتاة شيئاً . ولعل كثيراً من حديث أولئك الجدات كان يشير إلى أيام صباهن وحوادث غرامهن ، وإلى تلك الأوقات اللذيذة التي هوت في ظلم الماضي تاركة وراءها ذكريات تطيب استعادتها ويحز الألم في النفس أن لا سبيل من بعد إلى مثلها . وأى شيء غير هذا تراهن يذكرن بإزاء الصبا اليانع تتقارب زهراته الندية ! إنهن لا شك أبعد من أن ينلن مظاهر الحب بسوء وهن

يرين في الحب حياة وقوة ولا يجدن في مظهره ما يعافه معروف قومهن من قواعد الخلق . بل لعلهن كبعض أصدقائنا المصريين الذين تحدثوا في شتى الشؤون إلينا يقلن لمن ينال المحبين بسوء ويرفع العقيرة ناعياً الأخلاق وانهارها : - هون عليك يا صاح ولا تقف عند النظر إلى هذه الشؤون التافهة ؛ فليست هذه كل حضارة الغرب وإن كانت بعض آثارها . بل انظر إلى ما حولك من سائر المظاهر في الفن والأدب والصناعة والاختراع والاستكشاف . فإذا علمت أن ذلك كله من عمل أولئك الذين تنعى عليهم سلوكهم وتعييهم أخلاقهم ، فراجع نفسك وتذكر أن هذه الحضارة اللبنة القوية الثابتة لا يقوم بإنشائها وحفظ كيانها من لا أخلاق له أو من سوء سلوكه .

وكان الجو خارج الغرفة يزداد قتاماً ، والسحب تزداد تراكماً . وخرج أحد الحاضرين بعد ما ارتدى معطفه ثم عاد معلناً أن رذاذاً يتساقط وأن الوقت قَر ، وأن لا سبيل إلى نزهة الجبل . وكذلك تداعى كل أمل في مشاهدة الألب السويسرية والفرنسية من هذه القمة البديعة ، ولم يبق إلا العودة إلى جنيف من طريقها الثاني المار بأنماس . فعكف الحاضرون على قهوتهم يشربونها ، وعلى سجائرتهم يدخنونها . وكان بيننا رجل وزوجه ومعهما ابنتهما الطفلة التي لا تزيد على السنتين من العمر إلا قليلاً . ولما رأت من السيدات مدخنات جعلت تضع في فمها عوداً دقيقاً تقلد به بنات جنسها ممن تحطين حدود الطفولة . ولقد كانت في تقليدها وفي لعبها وفي حديثها ساوياً للحاضرين عن الجو وعبوسه والسماء وقمامتها .

ثم غادر الناس الغرفة الدافئة بأنفاسهم وبحرارة الطعام والنبيد ، وانحدروا يطلبون المحطة في انتظار القطار . وتلفت إلى ما حولى فإذا الأودية كلها قد ملأها السحب حتى صار كل ما حولنا لجة من غمام غرقت فيها أطواد الجبال فاخنت بعضها بما عليه من نبت وزهر وشجر ، وبقيت ظهور بعضها طافية كأنما هي حيتان ضخمة تسبح في لجة السماء المذابة ركاماً . وسرحت النظر ألتمس الأفق ، فإذا منظر قفر ما أذكر أنى رأيت مثله في سياحاتي ، وما أحسب كاتباً يقدر على حسن وصفه مهما أوتى من البيان . فهذه الحيتان السابحة ، وهذه اللجج المترامية ، وهذه السماء المذابة تشتملها عند الأفق ظلمة تخلط الليل بالنهار في هذه الساعة التي تتكبد فيها الشمس السماء وتعالج عبثاً أن تنفذ إلى الوجود وتبعث إليه آية الحرارة والنور . وفي هذه الظلمة لا ترى سحاباً ولا جبلاً ولا سماء ، وإنما هو ديجور منتشر تبعث فيه آلهة الظلمة بآمال الناس في خيط من ضياء . وفيها اليأس يعمل في النفوس إذا برق يخفق يخطف سناه الأبصار ويضيء لحظة هذا القتام الداكن ، وإذا رعد يبعث إلى السكينة

الموحشة فوق قلل الأجبـال زثيراً تهتز له النفس من خيفة المطر المتون . واستغرق البرق والرعد ثانية أو بضع ثوان ، ثم عادت السكينة الموحشة والظلمة المهوبة ، وازدادت أشباح الحيتان السابحة جلـالا ورهبة . ولكن السماء ظلت ممسكة ماءها إلا رذاذاً ، وظل من حولنا ينظرون إلى ساعاتهم يقدرـون الدقائق الباقية لوصول القطار . أما الطفلة التي كانت معنا في قاعة الطعام فلم يزدها البرق والرعد إلا إمعاناً في اللهو والضحك ، وكأنها آمنة ، ما رأت أباهـا ، من عدوان الطبيعة وغدر القدر . وطالت الدقائق الباقية كأنما هي باقية على ساعة البعث والحساب .

ثم ظهر القطار زاحفاً إلى القمة ، فعلت الثغور ابتسامة التحية وأخذ كل مكانه مطمئناً إلى اتقاء ما يخشى من صيب السماء . وانحدر القطار صغيراً ضئيلاً تحفه السحب من كل جانب فما يكاد النظر يرى من النبات المحيط به إلا القليل . واستبدلنا به غيره هبط بنا إلى أن اتصل السفح بالأرض . ثم استبدلنا بالقطار تراماً أقلنا إلى جنيف ماراً بأتماس في شوارع وطرق دون شوارع جنيف وطرقها جمالاً .

* * *

وأصبحنا في الغد فإذا الجو مطير والسماء هتون والشمس في الحجب ، فلزمنا فندقنا آمـلين صلاح الجو بعد الظهيرة . لكن المطر ظل هاتناً فحبسنا في فندقنا . فلما كان المساء ذهبنا إلى مسرح الكوميدي نخشى فيه شطراً من الليل نعتاض به عن سجن النهار . وخرجنا في منتصف الليل ، وحاولنا أن نعود إلى الفندق على أقدامنا ليطول استمتاعنا بريق هوائه ، فلم يطل بنا السير أن انفجرت أفواه السماء أكثر تهتاتاً منها طوال النهار وذهبت من ناحية وزوجي من الأخرى نصيح بعربة أو أوتوموبيل يقينا هذا المطر . على أنا لم نعبس له ولا بعث تهتاته إلى نفوسنا أي امتعاض ؛ فقد كفل المرح الذي يملأ جو سويسرا كلها طمأنينة نفسينا إلى كل شيء واعتباطها بكل مظاهر الطبيعة وبالمطر يكاد يغرقنا رغم احتمائنا منه بالجدران والأبواب . وعثرنا آخر الأمر بأوتوموبيل ركبناه إلى الفندق فقابلنا رجال السهرة فيه بابتسام لما رأوا ما عليه حالنا . فلما أخبرناهم أننا مسافرون في الغد إلى لوزان نصحوا إلينا أن نتخذ طريقنا إليها فوق البحيرة على الباخرة « هلفسيا » ، أكبر بواخر ليمان وأكثرها جمالاً وحسن نظام .

ونزلنا « أوشى » ميناء لوزان على البحيرة ، واخترت فندق بوريفاج حيث وقعت معاهدة لوزان . وأذكرني هذا الفندق نزولي صيف سنة ١٩١٠ بفندق إنجلترا من فنادق أوشى ؛ لأن لورد بيرون كتب به قصيدته « تشيلد هارولد » ؛ فقد وضع فندق إنجلترا

على جداره لوحة يسجل عليها هذا الحادث الجليل في تاريخ الأدب ، ووضع فندق بوريفاج على جدار بهو الكبير الذى وقعت المعاهدة فيه لوحة يسجل عليها هذا الحادث الخطير في تاريخ السياسة الدولية . وأوشى صاحبة ظريفة بسامة تقابل أفيان على الشاطئ الفرنسى لبحيرة ليمان ، ولكن لها من البهاء والجمال أضعاف مالأفيان وإن لم تكن لها مثل مياهها المعدنية . وفندق بوريفاج زينة أوشى ببارع حدائقه المتدرجة من الهضبة التى يقوم الفندق عليها إلى الشارع المتصل بشاطئ البحيرة ، وبجمال عمارته وبفسيح أهبائه وصلاته . وإنا لتتخطى صالوناته قاصدين إلى غرفة الطعام إذا بالسيدة التى نيفت على التسعين والتى استرعت نظرنا فى إكس - لى - بن حين جاءت إلى المائدة فى عربة ، ثم أسندها خادمان حتى أوصلها إلى مجلسها بإزاء حفيدها ، وإذا حفيدها يدفعها فى عربتها فلما وقع نظرها علينا ابتسمت وحيث برأسها تحية جميلة جعلت زوجى أشد بمشيتها براً وعلى المشيب كله عطفاً . ولعلها رأت بعد هذه الابتسامة أنه كان يحسن بالشيوخ وبالعجائز أن ينزروا حين كانت الحياة فى اعتبار الناس شراً يتبرمون به ويتمنون الخلاص منه ؛ لأنها كانت فى نظرهم عبثاً ثقيلاً بما تقتضيه من جهد وكد لا عوض عنه فى مرح أو مسرة ؛ ولذلك كان من حقهم أن يروا الفضيلة فى الزهد والانزواء . أما اليوم وقد تكدر فى الحياة من أسباب النعمة ما خلقته الأجيال المتعاقبة خلقاً وما أبدعه الخيال والعقل ، فقد وجب أن يتغير الاعتبار القديم ، وأن ينظر الناس إلى الحياة على أنها خير يجتنى ومورد سائغ يزداد عذوبة كلما كثر رواده والمستمتعون به ، وكلما كان من بينهم هؤلاء الشيوخ والعجائز الذين يزيدون الحياة جمالاً بإقبالهم على الاستمتاع بكل ما فيها مما يروونه خيراً ونعمة .

ويصل الترام بين أوشى ولوزان فى دقائق معدودة مرتقياً هضبة بنيت فوقها المدينة تطل منها على مياه ليمان يستمتع أهلها بمنظرها فى أماكن عدة منها . وليس فى المدينة كثير يستوقف النظر ما يستوقفه قصر العدالة بها قامت عمارته الجميلة بين حدائق وأشجار هى لأهل لوزان متنزه حر وموضع جمال ومسرة . على أنا لم نكن نغنى بتقصى ما فى المدينة من آثار وعمارة بعد الذى شهدنا منهما بالعاصمتين الفرنسية والإنجليزية وبعد قصور جمعية الأمم فى جنيف . ثم إن ما يحيط بالمدينة من غابات كان أكثرها اجتذاباً لنا كى نجد فيه هذا الهواء الصافى الصحيح الذى يقوى حب الحياة فى نفوسنا . خرجنا ذات صباح إلى غابة قاصية يقطع الترام أكثر من ساعة فى مسيره إليها فى بطيح من الأرض لا يقع النظر حتى آفاه على جبل أوشبه من جبل . وهبطنا قرب الظهيرة ، فكان أول همتا أن نعرف

أين نتناول غداءنا . وسألنا فدلنا رجل هو وحده الذى استمر معنا إلى غاية ما وصل إليه الترام ، على مكان قال إنه الوحيد فى الناحية . وقطعنا إليه مسيرة ربع الساعة ، فإذا هو كوخ ما كنا لنرضى أن نجتاز بابه لو لم يضطرونا إليه أن لا سبيل إلى غيره ودخلنا إلى صالة فسيحة كثيرة النوافذ بها بار وبها بضع مناضد حوطا كراسى من الخشب المكسو بالقش من ذلك النوع الذى عفا ولم يعد يرى إلا فى أحياء العوز والمتربة . ولم يك إلا دقائق حتى دخل إلى المكان عدة أشخاص فى قبعاتهم ريشة خضراء وهم يلبسون لباس الصيد ويحمل كل منهم بندقيته ويتكلمون لغة لا نكاد نفهمها . وجاءت خادم سألناها عما تستطيع أن تقدمه لغدائنا ، فعلمنا أنها تصيد السمك من نهر قريب ، ولكن صيدها لم يكن فى ذلك اليوم مثمراً . وكنا قد رأينا حول المكان دجاجاً ، فسألنا أتستطيعين أن تطهى لنا منه شيئاً ، فترددت ، ثم أجابت رغبتنا بعد ما أخبرتنا أن الطهى يحتاج إلى ساعة أو نحوها ، فوافقناها على ذلك ، وخرجنا نقضى هذه الساعة فى الغابة الهائلة الممتدة إلى ما لا نعرف حدوده نجد خلالها روعة جمال وبديع متاع . وعدنا بعد انقضاء أكثر من ساعة ، فقدمت الخادم الطعام إلينا دجاجاً وبطاطس أقلنا على التهامه بشمية ، ووجدنا فيه لذة لم نجدها فى أفخر طعام تقدمه أعظم الفنادق ، مما جعلنا نأنس إلى هذا الكوخ الذى كان موضع ازدرائنا وتقززنا حين وقع نظرنا عليه ساعة مجيئنا . وعدنا إلى الغابات حتى قارب المغيب . فعدنا إلى لوزان ثم إلى أوشى وكلنا على طعام العشاء إقبال وله شهية .

وآن لنا أن نغادر لوزان إلى أنترلاكن ، فركبنا البحيرة حتى مونتره والقطار إلى مدينة اليونج فراو . هنا يقف بى القلم إن أنا حاولت وصف هذا الطريق يتعلق النظر والقلب والفؤاد بكل جزء منه ؛ لأنه يرى فى كل جزء منه جمالاً جديداً . مرت الباخرة « بففى » فذكرت روسو ، وذكرت هلويز الجديدة ، وذكرت بيرون وشلى ، فكنت لهم جميعاً عذيراً مما بعثته هاته البقاع إلى نفوسهم من حب وشعر وولع بالجمال وجنون بالطبيعة . كلا ! ليست ليمان هنا بحيرة ، ولا هذه الأرض من حوطا شواطئ ، ولا هذه المرتفعات جبالا . وليست تظلنا هاهنا سماء كالسماء التى تظل العالم كله ، بل هذه صورة اقن فيها خيال روافيل فنقشها بريشته ثم قيل لنا هى ماء وشواطئ وجبال وسماء ، وكيف سما خيال روافيل ليضع فى هذه الصورة الساحرة ما فيها من حياة وغرام وفتنة وبهر ! لقد كنت أرى على وجوه المسافرين جميعاً من طمأنينة النعمة الراضية ، وفى نظراتهم من الاستسلام لروعة هذا الجمال ، مثلما ترى فى نظرة المحب وعلى وجهه ساعة يلتقى بمحبوبته الفاتنة .

وهل كانوا يستطيعون مقاومة هذا السحر وما حولهم من موج البحيرة وضحك الزهر وابتسام الشجر ورقة الهواء وخضرة السفوح وحنان السماء كله سحر وحب وهوى ! وظلت الباخرة تجرى بنا قترينا من اختلاف مناظر الشاطئ ما يزيد في أسره ألبابنا ، حتى بلغنا مونترية قرب الظهيرة . وأخذ جمال متاعنا على عربة يد وتبعناه إلى محطة السكة الحديدية نصعد الطرق إليها في هذه المنطقة الجبلية تتجاوز مدنها الشوارع مرتفعاً أحدها عن الآخر أمتاراً عدة . على أنا لم نسر وراءه غير بعيد حتى رأيناه يجرى بالعربة ، ثم انعطف إلى طريق غاب فيه عن أنظارنا ، حتى خيل إلينا أنه فر بمتاعنا فرار لص أثم . . . وأغذذنا السير حتى بلغنا المحطة وجعلنا نلتمسه فيها فلم نجده . فقصصنا الأمر على أحد رجالها فقيل لنا إنه قد يكون في المحطة العليا . والمحطة العليا ترتفع عن المحطة السفلى أكثر من عشرة أمتار يصعد الإنسان إليها على درج أحسبه منقوراً في صخر الجبل . فأشرت إلى زوجي أن تنتظر حتى أصعد فأرى الحمّال وما صنع الله به وما صنع هو بمتاعنا ثم أعود إليها . ووقفت أجيل بصرى في هذه المحطة العليا ، فإذا الفتى مقبل على يجبرني أنه التمسنا فلم يجدها ، وأنه أودع متاعنا في الأمانات ، وأن القطار يقوم في الساعة الثانية . وذهبت معه إلى الأمانات ، فاطمأنت حين رأيت كل شيء كما أحب ، وحمدت في نفسى للفتى أمانته وجزيته عنها ، ثم عدت فهبطت ، وخرجنا من المحطة إلى فندق يقابلها نتناول فيه طعام الغداء انتظاراً لموعده قيام القطار في الساعة الثانية من بعد الظهر .

وركبنا القطار وبدأ مسيره . ولئن كان الطريق الذي مر به والذي مر به القطاران الآخران اللذان انتقلنا إليهما حتى وصلنا أنترلاكن كله روعة ؛ بسمو جباله البديعة السفوح وأوديته الممرعة الخضرة ، إلى لن أنسى حياتى الساعة الأولى لمغادرتنا مونترية حين جعل القطار يتسلق الجبل ثم يستدير صاعداً ، فتبدى البحيرة منحدره إليها سفوح خضر غاية في النضرة ، ثم يستدير ثانية فإذا الجبل يعدل البحيرة جمالا ، ثم يستدير مرة أخرى فإذا البحيرة في منظر أروع وأشد سحراً . في هاته الساعة كان السّفَر يبدو من الإعجاب كلما تبدت البحيرة لناحية منهم ما جعل العربة والقطار كله إعجاباً متصلاً . ويرتفع القطار فوق الجبل وتبدى البحيرة أمام المنظر تتسع خضرة السفوح الفاصلة بيننا وبينها في كل استدارة للقطار قترينا منظراً جديداً عجباً . وبعد استدارة أخرى أوغل القطار في الجبل بشق طريقه إلى سويسرا الألمانية.

وبلغنا أنترلاكن في الساعة العاشرة من المساء ، وأوينا إلى فندق فيكتوريا ويونج فراو .

وأنتراكن قرية صغيرة لا يزيد سكانها من السويسريين على ألفين ، ولكنها مصيف قد يقصد إليه عشرات الألوف كل صيف تجذبهم الأوبرلند تتجلى الألب فيها بما لا تتجلى بمثله من روعة في سائر أنحاء سويسرا مما شهدت . ذلك أن الألب فيها عظيمة الروعة بارتفاع قممها ، وبأن الإنسان شارك في تجميلها وفي تيسير ألوف الأمطار التي ترتفعها ليصعد المصطافون إلى قممها أو ليخترقوا جوفها . هذا إلى أن بحيرة ثون وبحيرة بينن المحيطتين بها تبلغان الغاية من الروعة حين تحصرهما القمم الرفيعة تتراءى بعضها في إثر بعض ، حتى لترى أحياناً قمماً ثمانية تقابل نظرك ، وترى الماء منحدرًا منها إلى البحيرة في اندفاع وقوة تحيلانه رغاء وزيداً .

وبما شارك الإنسان الطبيعة فيه مما حول أنتراكن كثيراً ما أذكر منه هنا ثلاث صور تصدم كل واحدة منها الخيال وإن تفاوتت في ذلك بين العجب المخيف في هاردركلم ، والدهشة المرتاعة في بياتس هوهلن ، والإجلال والإكبار في البيونج فراو . فأما الهاردركلم أو قمة الهارد فالعجب فيها هو القطار الصاعد إليها . هو لا يصعد على السفوح منحرجاً مع ميولها كما كان يصعد القطار الذي ذهب بنا إلى الساليف أو إلى ثلوج بيوناساي في السافوا العليا ، بل هو يصعد في خط مستقيم على شريط حديدى معلق فوق أخشاب في الهواء يعتمد على قواعد متينة فوق الجبل ، ويصعد في زاوية أكثر من نصف قائمة . وهو قريب من أنتراكن يصل إليه الإنسان في أقل من ربع الساعة سيراً على الأقدام .

ذهبنا إليه أصيل الغداة من وصولنا إليها ، فألفينا المحطة في بناء به ثلاث غرف يصعد الإنسان إليها عشرين درجة أو نحوها ، ومنها دخلنا إلى القطار عجلاته تحت عربته في مثل المثلث ، ليكون الجلوس فيه مستريحين على مقاعد أفقية . وصعد القطار ، فلم يكن إلا دقائق حتى كنا وإياه معلقين في الفضاء فوق شريطه ، وحتى كنا ننظر من زجاج نوافذه فلا نرى حولنا إلا فضاء . وبدأ على وجه بعض الركاب نوع من الوجع خيفة أن يهوى وأن تنحطم فوق صخر الجبل . والقطار يسحبه جتير تديره الكهرباء فيصعد ونصعد معه . فلما كنا عند منتصف الطريق مر بنا القطار الهابط وظللنا نحن في ارتفاعنا حتى وصلنا القمة ، فسرنا فوقها إلى فندق قريب من المحطة تناول المسافرون فيه فنجاناً من الشأى . لكن الجو ما لبث فيه أن دكن فلم يسمح لنا بمقام طويل فوق هذه القمة . درنا فيها فإذا الطرق المهدة قليلة ، وكأن الغاية من الصعود إليها أن يحدق الإنسان إلى سلاسل الألب في الأوبرلاند . ودكنة الجو تحجب بين النظر وهذه الجبال ، فلا خير في المقام وقد انقطعت السبيل إلى هاته الغاية .

فأما البيانس هوهلن فيثير الدهشة المرتاعة حقاً . أخذنا إليه الترام عند آخر البلد

المتصل ببحيرة ثون ، وانطلق بنا في طريق جميل محصور بين شاطئ البحيرة وسفح الجبل حتى وقف بنا في المحطة التي تؤدي إليه . وتسلقنا الجبل بضع مئات من الأمتار قامت على جانبي طريقها المتعرج في صعوده أشجار وحشائش ، حتى كنا عند فوهة في الجبل نخطينا إليها بعد رسم دفعناه ، فإذا بنا في فوهة مغارة نقرت في مختلف جوانبها كهوف صورت فيها تماثيل تصف حياة القديس بياتوس التي سميت هذه المغارة باسمه . فترى تماثيل هذا الشيخ الطويل اللحية البيضاء وأمامه أدوات ما كان لأهل العصور القديمة . وفي كهف آخر تماثيل أهل العصر الحجري ، وهلم جرأ . وجاء الدليل خارجاً من فوهة المغارة الموهلة في جوف الجبل يتبعه زوار سبقونا إليها ، وأن لنا أن ندخل بدورنا ، فإذا نحن في مضيق من الصخر أشبه بأبواب بعض الأهرامات ، وإذا بنا نوغل ثم نوغل في جوف الجبل وتضيء لنا الكهرياء الطريق نصف إضاءة لا تذهب بالظلمة ولا تذهب بالروعة . وبعد مسير عشر دقائق في هذه الدهشة الموحشة بدأنا نسمع خرير الماء في أعماق جوف الجبل ، كأننا انفجر فيه شريان فهو مقبل علينا يكتسحنا . وما هي إلا لحظة حتى كنا نصعد درجاً نعب بعده على قنطرة من خشب تقينا الماء وفيضانه . ونوغل ثم نوغل يتقدمنا الدليل ونحن آنأ نصعد درجاً وآناً نهبط درجاً غيره ، وثالثاً نكاد نخطو في الماء ، وأنوار الكهرياء خلال جوف الجبل قد نظمت ولون بعضها بما يزيد المكان الموهوب مهابة والمدهش دهشة . وكنا نقف فوق قنطرة من الخشب نحدق دونها إلى الماء يتسرب خلال الجبل ، فإذا موقفنا إلى جانب رجل وسيدة سبقانا إلى هذا المكان ثم بقيا لا تنفرج شفاهما عن كلمة إعجاب ؛ لأنهما صنعا من الشمع ووضعنا في هذا المكان العجيب ليزيداه عجباً وإغراباً . ويقص الدليل دقائق المكان مما خلفت العصور البعيدة في أطوار التاريخ في الصخر من آثار بعض الأسماك أو الحيوان أو ما يزعم أنه نقر المعتزلة الذين اختاروه مقاماً لهم أيام بياتوس وأتباعه من بعده ، ونحن مأخوذون عن قصصه بعجيب ما حولنا وبموقفنا هذا ، وقد ابتلعنا الجبل في جوفه كما ابتلع الحوت يونس في القصص المقدس ، وانشعبت أماننا المسالك حتى كدنا نضل لولا أن تقدمنا الدليل خلال شعبها . فلما آن لنا أن نخرج من جوف الجبل بقينا في دهشتنا وذهولنا حتى ركبتنا الترام ، ووصلنا إلى الفندق ساعة طعام العشاء .

وكان برنامجنا في الصباح أن نرتق اليونج فراو المرتفع أربعة آلاف وثلاثمائة متر في هذه القطارات الصاعدة التي أنفقت الشركة السويسرية في إنشائها أكثر من عشرة ملايين فرنك ذهب ، فلما جاء لنا الخادم بطعام الإفطار سأله عن حالة الجو وهل هو ملائم

أن نصعد ؟ ونحن في خيفة أن يصيبنا ما أصابنا في جنيف يوم صعدنا الساليف . فأجابنا بأن السماء محملة بالسحب ، وأن جو أنترلاكن ينذر بأن يكون مطيراً اليوم كله ، وأن التصعيد في الجبل وفوق السحاب خير ما نتقى به ظلمة اليوم . فلما أخبرناه بخبر الساليف ابتسم ابتسامة معجب باليونج فراو (السيدة الصغيرة) وذكر أن ارتفاعه إلى أضعاف ما يرتفع الساليف يسمو به فوق السحاب وفوق المطر . ولم يكذبنا الرجل ؛ فقد خرجنا وركبنا القطار والمطر يداعب الوجوه مؤذناً بأنه سينهمر بعد ساعة صيباً هتوئاً . وانطلق القطار ماراً بمحطات شتي حتى وصل بنا إلى القطار الصاعد والسحب في الجو تزداد كل ساعة تراكمًا ، وذهب القطار الصاعد يتسلق السفح تارة ويمجرى في بطيح فسيح من الجبل أخرى ، ثم يتسلق ثم يجرى ، وهو كلما ازداد تصعيداً ازدادت السحب من حوله تكاثفاً . حتى كنا في لجة لا نرى خلالها إلا مثل ما نرى في لجة ماء البحر إذا أنت غطست فيه . وظللنا كذلك زمناً ، ثم إذا القطار يخترق اللجة فجأة وينفذ منها . فإذا الشمس ساطعة والسماء صفو والجو إبداع ، وإذا هذه اللجة تنحدر إلى أسفل منا ، كلما أمعن القطار في صعوده ، وإذا القمم تتبدى صاعدة من خلالها ممتدة إلى غاية مدى النظر ، حتى لكأنما غرس هذا السحاب كله قمما . ونزلنا من القطار في البطيح ، وانتقلنا إلى القطار الصاعد إلى قمة اليونج فراو . وما هو إلا أن صعد بنا ثم استدار حتى دخل بنا في نفق جعل يصعد أثناءه ثم يصعد ويصعد ، ونحن لا نعرف متى ينتهي النفق ولا إلى أى شيء ينتهي : ووقف القطار في محطة ونزل المسافرون منه فيها بإزاء كهوف فسيحة نقرت في الجبل ، وينفذ النور من أشباه النوافذ فيها غطيت بالزجاج السميكة اتقاء للبرد وأعاصير الطبيعة . وذهبنا إلى أحد هذه الكهوف على مقربة من النافذة ، فإذا المنظر يقع منها على سفوح بيضاء لا يدرك حدودها ، قد كسبها الثلوج ثوباً ناصعاً . ووضعت عند هذا الشبه النافذة مناظر مريبة يميلها الناظر إلى حيث شاء ليرى هذا العالم من الثلج الذي تخترق خلاله ، والثلج لا شك يعلو هذا النفق الذي نسير فيه مادام يمتد على ما دونه من قمم وأباطح . وعاود القطار مسيره حتى وقف بنا عند غايته ، فهبطنا منه وصعدنا في رافع (أنسنير) وقف بنا في فناء غرفة الطعام دخلنا إليها فإذا هي نقرت في الجبل : ونسقت أبداع تنسيق ، وفرشت أوثر فراش ، ودفتت وأعدت فيها خير وسائل الراحة ، مما يجعلك وأنت في قمة من أعلى قمم الألب تجد من الرفاهية ما تجده في خير الفنادق وإن دفعت ثمنها غالياً . وتناولنا طعام الغداء ، ثم آن لنا أن نتسلق إلى القمة ، وأن نخرج من فوهة النفق المؤدية إليها . يا لجلال الطبيعة وإبداع

قها البارح الباهر ! ما كدنا نرتقى الدرجات القليلة ويأخذ الدليل بيدنا ونمسك العصى المديبة لتعاوننا في سيرنا ، ونسير بضع خطوات ، حتى أحسنا أن عيوننا تكاد تعشى دون مقاومة لألاء هذا الضياء ترده الثلوج من أشعة الشمس الساطعة . وحاولنا الإمعان في السير ، فأنفرتنا الثلوج تحت أقدامنا بالتعرض للانزلاق في كل خطوة نخطوها برغم العصى التي نعتمد عليها . وجازفنا مع ذلك وسرنا ، فإذا إلى يميننا قبو نصح أهل المنطقة إلينا بالدخول فيه ، فإذا هو مغارة كلها من الثلج قد مدت الكهرباء داخلها لتنير السبيل لمن يسلكون سبيلهم خلالها . وخرجنا من مغارة الثلج إلى بقعة من القمة كشفت عنها الثلوج وأحيطت بسياج من الخشب يحمي اللاجئين إليها من السقوط في الوهاد السحيقة المحيطة بها والمكسو بعضها بالثلج ، على حين تجرد بعضها الآخر ، أن ذاب أثناء الصيف ثلجه . وأحاطت بهذه البقعة وهاد وقمم تتالي أمام النظر ، فينتقل من إحداها إلى الأخرى وهو بها وبالثلوج التي تكسوها وبهذا الجو الجبلى المنعش مغتبط أشد اغتباط . وكان الثلج يكسو أقرب الوهاد من بقعتنا ، فيتخذ محبو الرياضة الجبلية طريقهم إليه يسرون أو ينزلقون فوقه ، ونحن فوق قممتنا وقوف نرقبهم ونزداد بمشاهدتهم غبطة على غبطتنا ومسرة على مسرتنا . وبقينا كذلك حتى آن للقطار أن يعود ، فالتمسنا من جديد فوهة النفق ، ونزلنا على الدرج إلى حيث « الأسنير » وإلى حيث القطار الذى انحدر بنا خلال النفق حتى انتقلنا منه إلى القطار الثانى الذى ما لبث أن زج بنا من جديد فى لجة السحاب لا سبيل إلى رؤية شئ من خلالها ، وإن هوى بعد ذلك تهت الأمطار فوقه ، حتى إذا كنا من جديد بأنترلاك كن كانت المدينة غرقى بمطر النهار كله ، وكان قضاء الأمسية فى الفندق أمراً لا مفر منه .

وفى ظهر الغد ركبنا القطار إلى لوسرن بعد أن أعد رجال الفندق لنا طعام الغداء نتناوله أثناء الطريق ؛ إذ لم يكن بالقطار عربة للطعام . وأعاد القطار فى تلويه بين بحيرة بين وبين الجبل صورة مصغرة من المنظر الذى رأينا عند موتريه . وبلغنا لوسرن فى المساء ، فلما أصبحنا جعلنا ننعم ببجيرتها البديعة الجمال ، وبمنظر جبلى الريحى والبيلات من حولها وبالزوارق تخطر فوق لجها . وشاركنا راكبي هذه الزوارق كما شاركناهم من قبل على بحيرة ليان . فلما كان الغد أرشدنا دليل « بدكر » إلى غابة أخذنا القطار الصاعد إليها وجعلنا نجوس خلالها ، حتى إذا كانت الظهيرة التمسنا مكاناً نتناول فيه طعام الغداء . ومع أن الدليل ذكر لنا أن بالغابة مطعماً جميلاً ، فقد وقفنا عند بناء خلناه هذا المطعم ولم يكن إياه ، ولم نكن نعلم هذا ! فجعلنا نظوف حوله نلتمس بابه ، فإذا أبوابه موصدة كلها . وإذا بنا نعتقد أن لا سبيل

لنا إلى طعام مادام المطعم مقفلاً . على أن طوافنا هداًنا في جانب منه إلى جوسق من خشب وضعت أمامه موائد ومقاعد ، فحسبناه المطعم . وصفقنا فجاءت امرأة سميكة مفتولة الساعد حمراء الوجه تسألنا بالألمانية ما نريد ؟ وعبثاً حاولنا أن نخاطبها بالإنجليزية أو الفرنسية . فهي لا تعرف غير الألمانية ونحن لا نعرفها ؛ وإذن فلا سبيل إلى تفاهم إلا بالإشارة . وأشرنا إلى أفواهنا علامة أنا نريد أن نأكل ، فجعلت ترطن ونحن لا نفهم . ثم انتهينا إلى أن قامت زوجي معها لترى ما قد يكون من طعام عندها . ثم عادت فذكرت أن غداءنا اليوم بيض ولحم بارد . ومع تفاهة هذا الطعام فقد اغتبطنا به أشد الاغتباط ، وفاض بنا السرور أثناء تناوله ومن بعده . ونعمنا بهذه السعادة التي أحاطت بنا . كل مقامنا بسويسرا والتي لم تكن في شيء معين ، بل كانت في هذا الجو السعيد الصافي الذي يبعث إلى النفس نشاطاً يزيد فيها قوة الحياة فيعلو بها على الضعف وينسيها أحداث الزمن .

وقمنا بعد طعامنا لنطوف بالغابة ، فلم نمض في السير أكثر من نصف الساعة حتى كنا عند هذا المطعم الذي أشار الدليل إليه . على أن ذلك زادنا غبطة بطعام الجوسق ، وسروراً بنزهتنا الجميلة خلال الغابة الفاتنة .

وفي صبح الغد ركبنا الباخرة على سطح بحيرة المديرية الأربعة "Lac des Quatre Cantons" إلى فلون لنذهب بالقطار منها إلى ميلانو . وجرت الباخرة بنا بين جبال يهز القلب سحر جمالها ويبعث إلى النفس فيضاً من الرضا عن الحياة ينسيها أن في الحياة هما أوشجناً . ورفعت طرفي إلى السماء شاكرًا لله أنعمه ، مودعاً جنته على الأرض في تخشع واعتراف بالجميل لن أنساه ما حييت . وجرى القطار بعد ذلك بنا مخترقاً نفق سبلون فيما بقي من بلاد سويسرا الإيطالية حتى يصل الحدود التي تفصل بين سويسرا وإيطاليا . عند ذلك انتقلنا من القطار الدولي إلى قطار إيطالي ، ومن بهاء مناطق الجبل إلى سهول لومبارديا وعند ذلك بدأنا نشعر بأننا نقترّب من مصر . ولكننا نقترّب منها بأرواح جديدة ، ونفوس قوية ، وبحكمة في الحياة تسمو بنا فوق كل ضعف أمام الحياة .

فى ميلانو

بعد خمسة وعشرين يوماً قضيتها فى أحضان الطبيعة البديعة متنقلاً بين جبال السافوا العليا وتلوجها الناصعة البياض وجبال سويسرا الخضراء الزاهرة المطلة على البحيرات الناطقة الجمال بآى السحر الفاتن ، وبعد أن امتلاً ناظرى وقلبى من هذه العظمة التى يشعر الإنسان أمام جمالها البارع وجلالها المهبوب بصغره وضعفه - انتقلت فى طريقى إلى تريستاكى أستقل الباخرة حلوان إلى مصر ، وحططت أولى مراحلى بمدينة ميلانو حيث أقمت يومين وبعض يوم . وما كدت أتركها حتى امتلاً فؤادى وعقلى بشعور آخر غير ذلك الشعور الأول ، وحتى جمعت ذاكرتى مما رأت عيناى وسمعت أذنائى وفكر فيه عقلى وخالج خيالى صورة أخرى ليست أقل من جلال الطبيعة وهبتها جلالاتها ولا هبة ؛ تلك صورة مجد الإنسان . وتقاربت الصورتان واقتربتا ، فأذكرت أنى أن كل ما فى الوجود من جمال وجلال إنما هو من خلق الإنسان ، وأن الإنسانية كانت ولن تزال صاحبة مجد الحياة فى العالم .

بلغنا ميلانو والشمس تكاد تنهى للانحدار إلى مغيبها . فلما اخترنا فندقنا ، ونزعنا عنا غبار السفر ، ونزلنا نرود المدينة ، كان أول ما أخذ بناظرنا بناء فخم لا تحيط به النظرة ولا تستقر العين عند جزء منه حتى تدعوها سائر أجزائه إلى اجتلاء ما تتحدث به من معانى الجمال . واستشرنا الدليل ، فإذا البناء كاتدرائية ميلانو الباهرة البارعة التى استنفدت من جهود رجال الفن أجيالاً متعاقبة قبل أن تتم ، والتى تبدو أمامك فى عظمتها وفخامتها كأنها جوهرة لم يدع الخوهرى الصنع منها جانباً إلا صقله وجمّله . فلما كان اليوم الثانى مررنا بها كرة أخرى وقد ألقى النهار على تمانيلها خمس المائة والألفين من نوره ما جلاها لينطق كل منها بما أودعه صائعه من معنى دينى جليل ، ثم دخلناها ، فإذا داخلها أكثر هبة وأدق صنعاً : ركب فى كل نوافذها التى تزيد على العشرين ، قطع من زجاج تزيد فى كل واحد على مائتى قطعة ، ونقش على كل قطعة منها صورة تمثل القصص المقدس وحديث المسيحية وأوليائها . وقامت فيها - على حد قول قسيس من قسيسها - غابة من عمد من المرمر رفيعة ضخمة دقيقة الصنع أيمادقة . وتوسط الكنيسة قبر سان شارل وضع فيه تابوته من الفضة وحلى

صدره وأصابه بما أهدى الملوك لذكرى صاحب الجثة من نفيس الجوهر . وصعدنا إلى أعلى الكنيسة فإذا هذه الدرة الثمينة في جبين الفن ثمينة حتى في نظر الذين لم يقفوا على دقائق الفن ، وإذا هي في تاريخ الفن الإنساني آية مجد وجلال لا تبلى .

وفي مساء ذلك اليوم ذهبنا إلى سكالاميلانو ، ولم تكن تمثل فيها أوبرا من الأوبرات ؛ لأن أبوابها موصدة للأوبرا من أبريل إلى نوفمبر . لكنها كانت تصدح موسيقاها بالحن بتوهفن . وفي نفسى لبتهوفن ميل ، بل جب لا أدري سببه : أهو لفنه ، أم لمصابه في حياته بالصمم ، أم لأنفته ، أم لإيمانه بواجبه ، أم لكل ذلك جميعاً . وكانوا يوقعون في هذا المساء لحن الريف (La Symphonie Pastorale) أحب ألحان بتوهفن إلى سمعى . وسكالاميلانو أفسح مسارح أوربا ، تتسع عند تمثيل الأوبرا لستائة وثلاثة آلاف سامع . فلما دخلناها ألقينا أهلها وضعوا مكان مسرحها الفسيح مقاعد ، وألقيناها تضيق بالحاضرين قعوداً ووقوفاً حتى ازدادوا عن خمسة آلاف عدداً ، وليقدرهم مقدرو الحفلات العامة بعشرة آلاف أو يزيدون . وصدحت الموسيقى ، فتطاوت الأعناق وخفت الأنفاس ، ولم يكن بين هذه الألوف الحاشدة نابس أو هامس وانتهى القسم الأول من اللحن فإذا هذه الصحراء الصامتة من بني آدم تنفجر بالتصفيق انفجاراً ، وإذا مدير الجوقة يحيي شاكرًا فلا تزيد تحيته الحضور إلا إمعاناً في التصفيق اعترافاً بحميلة أن أعاد إلى مسامعهم هذا اللحن المقدس من ألحان بتوهفن العظيم ، وإذا الرعوس تهتز إعجاباً ، والصدور تستنشق في هودة وطمأنينة هذا الغذاء الفنى الجميل الذى يسبغ على الحياة نعمتها ، ويجعل لها من القيمة ما تستحق معه أن تحب وأن تخدم بإخلاص وعناية .

ولما انتهى اللحن قلت في نفسى :

« إن هذه الألوف الحاشدة لتنتلق أكفهم بالتصفيق إعجاباً بهذا اللحن الساحر ، وهو بعد حكاية الطبيعة والحياة حكاية دقيقة صادقة . فلحن الريف ليس إلا أهل القرية في جذبهم يدهمهم الرعد والبرق والمطر وتحيط بهم شدة الطبيعة من كل مكان فينزوون ويبتهلون . فإذا أمسكت السماء وكفها ، وأشرقت الشمس من جديد ، عاد إليهم جذبهم وشكروا أنعم ربهم وزادوه حمداً وتسبيحاً . وما أكثر ما تتكرر هذه الصورة في الحياة من غير أن تثير إعجاب معجب أو تصفيق مصفق . لكن جمع بتوهفن إياها وسوقه لها في صورة من الفن دقيقة هو مثار الإعجاب . فأى العنصرين أقوى : بتوهفن أم الطبيعة ؟ وإذا كان الإنسان هو الأقوى أليس هذا مجداً له ليس يعدله مجد ؟ ! »

«ومن الحاضرين من ليسوا في الفن ذوى دقة ، ومع ذلك مرت بهم نغمات أخذت منهم بشغاف القلب ومجامع الفؤاد ، وأثارت مسرتهم بمثل ما تثير الكلمات القليلة التي يعرف الطفل كيف يقرأها في مقال طويل زهوه ومسرتة . أليس معنى هذا أننا كلما ازددنا لما في الحياة إدراكاً ازددنا للحياة حباً وكنا لها أدق تقديراً ؟ . فإذا أحاط الإنسان بها من جانب الفن أو من جانب العلم خلق فيها جديداً يزيدنا حياة ويزيده مجداً » .

وأوقع الموسيقيون لحناً آخر من ألحان بتهوفن فيه من حكاية الطبيعة بعض ما في لحن الريف ، فأعاني ذلك على متابعة ما أفكر فيه ، ودارت بنفسى خواطر لم تقف عند بتهوفن وألحانه ، زادتني كلها إيماناً بأن الإنسان إن كان بعض ما في الوجود وكان بعضاً قليلاً فهو لا شك خالق مجد الحياة ، وأن خياله كان في هذا الخلق أوفر حظاً من عقله ، أو أن عقله وخياله تعاونا في هذا الخلق ، فكان من تعاونهما نعم الحياة الذي يزداد كل يوم بما يزيدنا خلقاً وإيجاداً .

وما جمال الطبيعة وما نعيمها لو لم يتغن بهما الشعراء ويلحنهما الموسيقيون ويصفهما الكتاب ويقيم لهما المثالون التماثيل ويفتن العلماء في بيان دقائقهما واستنباط سننهما ؟ كيف نرى التجاوب والاتساق في الجبال والبحار وفي العاصفة المقوضة وفي المطر الهاتن يفر منه كل إلى وكره ، لو لم يجتمع ذلك كله في خيال خصب كخيال بتهوفن ، فيضمه ويسبغه ويلحنه في لحن الريف البديع ، أو كخيال روسو أو بيرون أو رفايل أو غير هؤلاء من رجال الفن الخالقين الذين يلبسونه من ثوب الفن ما يصل به إلى كل حس وكل قلب ، فيطبع فيه ما شعر به الفنان من جمال فأنشأه إنشاء وخلقه خلقاً ! ! أو ليس هذا التجاوب والاتساق هو جمال الحياة وزينتها ؟ فالذين خلقوه هم الذين خلقوا جمال الحياة ، وهم لذلك أصحاب مجد الحياة في العالم .

بل إن ألحان بتهوفن وقصائد بيرون وكتب روسو وصور رفايل وفلسفة أفلاطون ومخلفات كل فنان وكل عالم ، لآثار خالدة هي ما للإنسان في الحياة من مجد وجلال . وإذا كانت جبال الألب المهوبة الخالدة العظيمة والجلال تمتع اللب والخيال بعظمتها وامتدادها واختلاف مظاهرها وصورها ، فإن كتدرائية ميلانو وحدها لا تقل عن جبال الألب كلها إمتاعاً للعقل والخيال بكل معاني العظمة والقوة والجلال والجمال . بل لعلها أكثر منها إمتاعاً وأبقى في النفس أثراً . فإنك كلما وقفت تشهد نقوشها وتماثيلها وعمارها رأيت في كل قطعة منها ، بالغاً ما بلغ صغرها ، ما أراد صانعها أن تحمل من أسرار ومعان . فإذا أنت خلوت

إلى نفسك وتمثلت هذه الجوهرة النفيسة من جواهر الفن وأردت استكناه دقائق أسرارها ومعانيها ، رأيت أمام بصرك خلقاً عظيماً كثير الأسرار جم المعاني ، فأمنت بمجد أصحابه وبأنهم هم الذين جعلوا للحياة قيمتها .

وموسيقى بتهوفن ، وكتدرائية ميلانو ، وآثار من ذكرنا من الفنانين في الشعر والأدب والتصوير ، كل ذلك ليس إلا قطرة من هذا المجد الذى يبدأ مع الإنسان منذ كان الإنسان ، والذى سيظل زينة الحياة ما بقيت الحياة . ما بالك بما خلفت حضارة مصر وآشور واليونان والرومان والمسلمين وبما تقيمه حضارة هذا العصر الذى نعيش فيه ! وهل مما فى الوجود شئ لم تصقله هذه الحضارات ولم تخلع عليه الطابع الذى له اليوم ؟ بل هل فى الوجود فكرة ليس الخيال الإنسانى خالقها ؟ ! فإذا كان هذا عمل الإنسان فما جلال الطبيعة وما عظمتها أمام مجده الخالد الذى لا يبلى ! وما جلال الطبيعة وما عظمتها إلا بعض خلق الإنسان فيما خلق من صور الفن وآى العلم .

* * *

وردت هذه الخواطر إلى خيالى وتمكنت من نفسى على أثر ما شهدته فى سكالاميلانو ، ففتحت أمامى عالماً جديداً من عوالم التفكير واسع المدى . وكما كان يسعدنى أن أظل فى أحضانه أجتلى من آثار هذا المجد الخالد ما فيه نعمة الحياة . لكنى رأيت فى جانب آخر من ميلانو ما بعث إلى نفسى لوناً من التفكير كالأذى بعثته الكتدرائية والأسكالالا ، وإن يكن من نوع آخر . هذا الجانب الآخر هو مقبرة ميلانو ؛ فهى تصور صورة من مجد الإنسان ليست دون ما يصوره غيرها من خالده آثاره . لكن إحساسنا فيها كان متأثراً بشعورنا ، حتى كاد يحرك لاذع الألم فى نفوسنا . وما أحسبنا وحدنا الذين تثير المقابر هذا الإحساس عندهم ، بل لعله إحساس الناس جميعاً . فهم ونحن جميعاً نشهد للمقابر رهبتنا ويشد إليها هويئنا ؛ نرهبها لأنها المثلوى الذى نحمل إليه غير مختارين ، ونهوى إليها لأنها مثوى الأعزة وفلذات الأكباد ، ولأنها مستقر تاريخ الإنسانية الذى أورثنا من آثاره ما زادنا على الحياة سلطاناً ولها حجباً . لذلك تهوى أفئدتنا إلى المقابر فى خشوع ورهبة . فإذا اشتملنا سكونها المهيب تنازعت نفوسنا عوامل الإجلال والمخافة ، والرجاء واليأس ، ما لم تنحدر بنا عواطفنا فى وهاد الحزن والألم فتنسينا ظلماتها الموحشة ما سواهما من العواطف والإحساسات .

وللمقابر على الأحياء سحر لا يقل عن سحر الحياة إياهم ؛ فهم يؤمنونها وإن اختلفت

طوائفهم وتفاوتت مداركهم وانشعبت في زيارتها أغراضهم . وليست مقابر أعزتهم هي وحدها التي تسحرم ، بل هم يهون إليها جميعاً وكأنما يردد عندها كل منهم في غور نفسه وقراءة قواده قول الشاعر :

وقال أتبكي كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له إن الشجا يبعث الشجا فدعنى فهذا كله قبر مالك
وكانما يجد كل منهم سر الحياة ومعنى الوجود دفيناً في كل قبر . فالمرأة الساذجة الذاهبة تستندى سر الصالحين وتستجدي بركتهم ، والمنحدر في وادي الملوك إلى مقابر الفراعنة يستشف خلال ألوف سنين مضت عظمة الأزمان الغابرة ، والسائر في بانثيون باريس يطوف بقبور الكتاب والشعراء والفلاسفة الذين طوهم البلى فخلدوا برغمه على وجه الزمان ، والضارب في صحراء القاهرة بين مقابر مجهولة ، أولئك وغيرهم تدعوهم المقابر إليها فيلبون الدعاء ، وإن اختلف ما يصورونه لأنفسهم من غاية في إجابته . فإذا مثلوا في حضرة الموت رأوا كيف يستجن في الموت سر الحياة ، فالتمست الساذجة من قبر الصالح الصحة والحب والسعادة ، والتمس المنحدر في وادي الملوك إلى قبر الفرعون أسباب العظمة والمجد ، والسائر في بانثيون باريس إلى قبور الفلاسفة والكتاب أسباب الحكمة والخلود ، والتمس الضارب بين المقابر سر الحياة الدفين فيها .

وأيّن يلتمس الناس سر الحياة إن لم يلتمسوه في الموت وهو غاية الحياة ومدى ما يصل إليه علمهم منها ! أو لم ينفق كثير من المفكرين والفلاسفة أعمارهم في استكناه ما بعد الموت ؟ والمقابر دور الموت ، كما أن المنازل دور الحياة .

وهذه العواطف المختلفة التي تختلج في نفوسنا ساعة زيارة المقابر هي التي أدت بالناس منذ ألوف السنين إلى أن يجعلوا منها قصوراً فخمة تتجلى فيها المعاني التي جالت بنفوس الأحياء ممن بنوها . وما تزال أمم كثيرة تجعل من المقابر صلة الحياة بما بعد الحياة ، وتسعى لتجعل مقابرها زينة للناظرين ، فتجمل لهم الموت كما جملت الحياة . وإنك لترى من بدائع الفن في بعض المقابر ما تقف أمامه معجباً به برغم ما يمثله من عواطف محزنة وقلوب كسيرة وأفئدة جريحة . والذين زاروا «جنوا» في إيطاليا يذكرون أن ليس فيها من آثار الفن غير مقبرتها . ومقبرة ميلانو هي أيضاً متحف من متاحف الفن ، إن لم تبلغ كندرائيتها في العظمة ولم تبلغ بعض آثارها الأخرى في الجلال فهي ولا ريب أشد ما في ميلانو من الآثار رهبة ، وأنفذها إلى النفس معنى .

زراها في ثامن أكتوبر سنة ١٩٢٦ ، وكان يوماً غائماً لم تبرز منذ صباحه شمس ، وظل رذاذه يداعب السائرين في الطرقات حيناً بعد حين . ووصل بنا الترام في منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر إلى أبواب المقبرة ، فإذا بائعو الأزهار وبائعاتها انتحوا من الطريق جانباً ، وإذا رجال وسيدات وفتيات يتساعون ما تنتعش له نفوس أعزائهم في وحدة القبر . ونظرت نحو المقبرة فإذا فناء فسيح شيد على جوانبه الثلاثة بناء فخم ويفصل بينه وبين الميدان سياج من عمد الحديد ، فتخطينا السياج ووقفنا هنيئة نحدق في صدر الفناء إلى هذه العمد الرفيعة والأقواس فوقها ، تحسبها عمد القصور وأقواسها . ومن فوق هذه العمد والأقواس التي تؤدي إلى منازل الدار الآخرة شيد طابق ثان فيه عمد وأقواس ، وفيه محاريب وتماثيل ، وفيه صناديق كبيرة من حجر هي مثنى أصحاب التماثيل القائمة إلى جانبها . وأدركنا النظر يسرة فألفينا بواب هذه المقابر واقفاً على باب غرفته عرضت في زجاجها كتب هي دليل المقبرة وما فيها من تماثيل وأنصاب . فسرنا إليه نسأله : أيتقاضى من زائري هذه المقابر أجراً غير ثمن الدليل ؟ قال : إنما الأجر لمن يزور المقابر ، وكل ما عليه أن يضرع عند الله لأهلها بدعوة صالحة .

سرنا في الفناء محاذين هذا الجناح الأيسر من سراى المدخل ، فأخذ بنظرنا فيه باب نزلنا عنده خطوة ، فإذا حولنا صناديق الحجر وتماثيل من احتوت الصناديق رفاتهم صنعت من المرمر صنعةً دقيقة ، ووضعت إلى جوانبها شواهد من المرمر كذلك ، نقش عليها اسم صاحب التمثال ورجاء مغفرة من الله له . وبلى هذه الغرفة الضيقة دهليز أفق طويل صفت المقابر عن جانبيه . ويشعر الإنسان في هذا المكان المسقوف الضيق بين هذه المقابر الكثيرة بشيء أقرب إلى الفزع منه إلى الرهبة ، ويخيل إليه كأن ساعة الحشر دانية ، ولا يحتل جمال التماثيل ولا حلاوة الأزهار الملقاة على أقدامها وحول الشواهد المستغفرة لها بسبب هذا الفزع إلا قليلاً .

وعدنا إلى الفناء وتخطينا بين العمد وتحت الأقواس إلى رحب المقبرة ، فإذا بنا في ميدان فسيح يزيد على خمسين فدناً ، وإذا هذا الميدان حديقة ناضرة ، ثرت فيها التماثيل على اختلاف صورها وأحجامها ، وإذا بك يزايك الفزع مخافة ساعة الحشر الدانية ، وتطمئن نفسك إلى هذه الخضرة الباسمة وإلى الأزهار مختلفاً ألوانها ، وإلى الأنصاب الرفيعة وقفت أو تمطت في حناياها وإلى جانبها ومن حولها تماثيل آية في الدقة . إذ ذاك تسائل نفسك : أهذه هي المقبرة التي تكن في جوفها رفات أعزة تدمى لذكرهم قلوب وتذوب

أكباد وتغوص في لجج الهم نفوس وأفئدة ؟ ياما أعجب نظر هؤلاء الناس إلى العيش ! وما أشدهم حرصاً على المتاع بكل لحظة من لحظاته ! ها هم أولاء قد جعلوا من منازل الموت زينة للحياة ومتاعاً لعيون الأحياء . ولعل أولئك الذين يحملون الورود والرياحين إلى القبور إنما يريدون أن يزيدوا جمال هذا المتحف الذي تفتخر به ميلانو وتجعله في حياتها عنوان عز ومجد .

ولكن هذه الخواطر التي مرت بالذهن عندما نخطينا إلى رحب المقبرة لم تلبث إلا يسيراً حتى أذابتها حشرات نفذت إلى شغاف النفس مما تنطق به التماثيل في نظراتها المحزونة ، وفي دمعات هامية من عيونها الحجرية على خدودها ، وفي هذا التخشع والانكسار والاستسلام لجبروت الموت القاسي . وأكثر هذه المعاني المحزونة أثراً في النفس ما جاور قبوراً أغلب الظن أن أصحابها ليسوا أغنياء . لا تعجب ! إن هذه المقابر التي يدور في ظن الناس جميعاً أن أصحابها يرقدون فيها على بساط عدل ومساواة ، يتفاوت أصحابها أمام أهلهم وأمام الناس في قدر ما كانوا وما صنعوا وما يستحقون من ذكر وأسى . فهذا القبر الذي عن يميننا عطل من كل تمثال ، واكتفى أهله بشاهد توسطته صورة الشيخين الراقدين فيه . وهذا القبر الثاني إلى جانبه جلس إليه تمثال حسناء مرسل شعرها على ظهرها وصدرها في غير نظام ، وقد بلغ منها الحزن مدى اليأس ، فألقت بذراعيها فوق القبر ، كأنما كانت تريد أن تترع منه صاحبه المحبوب لتعيد إليه الحياة ، فإذا أملها هباء وذراعها ملقيتان في عجز واستسلام ، وإذا هي لا تملك غير دمع فياض وقلب متحطم . فأما ذلك النصب العالى إلى يسارنا فيتوسطه تمثال أبى الأسرة المدفونة تحته ، وأحاطت به تماثيل نسوة ارتسم على وجوههن جمال الألم من غير أن تشوهه لذعات الحسرة .

وسرنا في طرق حديقة الموت ومتحفه ، وما نكاد نخطو حتى تستوقفنا المعاني المختلفة تعبر بها التماثيل عما تكنه نفوس الأحياء من جزع أمام الموت ، أو ألم لفراق عزيز ذاهب ، أو فخر برجل عمر وترك وراءه ذكراً يحسبه ذووه باقياً . ثم وقفنا أمام قبر جثا فوقه تمثال طفل يصلى . يا رعاك الله يا صبي ! على من تبكى ولن تستغفر ؟ ! من ذا أخرجك من براءتك وطهرتك ، ودس إلى قلبك الصغير ما في الحياة من هموم الألم وسمومه ؟ ! أتصلى لأملك الشابة الصبوح ظلت مطوقة إياك بذراعيها حتى أثلجها الموت وهي الآن تراب ظهور يبعث لك في الحياة من الذكرى ما يغسل حوالب الحياة ؟ ! أم هو أخ لك طفل مثلك شعرت بالوحشة لفراقه فجئت تدعوه إليك يؤنس وحشتك ويسلى هم وحدتك ؟ أم لعلك أنت أيهذا

التمثال تمثال الوحيد العزيز الراقد طى الثرى ؟ ! ادع أيها الحجر الصامت صاحبك وأطل الدعاء ! . . أواه إنه لن ييجيبك ، وإنك لن تظفر من دعائك إلا بدموع كأنها الحمم تفرى أكباداً جرحى وقلوباً كليمة ، وتلك عزائم كانت أمام ما فى الحياة أطواداً كالجبال ، ثم إذا الحياة أمامها سراب خادع ليس فيه من حقيقة إلا الدمع وإلا الألم .

واستغفرنا الله عما صنع بالصبي الراقد هناك فى صحراء القاهرة ، وأسرعنا إلى جانب آخر من جوانب المقبرة الفسيحة . وكأنما شعر السحاب بهمنا فبعث من عنده رذاذاً أطفأ ما التهب به نفوسنا ودعانا لنحتفى بجدار قريب . وكان على مقربة من الجدار قبر جلس إليه مثال ينقر فى الصخر موضعاً لمصباح وضعه أهل القبر ليضى ظلمته . ثم صعدنا درجاً إلى جانب الجدار ، فإذا صناديق من حجر وتمائيل وشواهد نقشت عليها أسماء أصحابها وكأنها تزدهى بمقامها فى هذا المقام الأعلى . وسرنا البصر فى المقبرة فلم نحط بغايتها . وخشينا أن تقع العين على مثل تمثال ذلك الطفل ، فسرنا فى الطابق الثانى صوب باب المقبرة بين صناديق وتمائيل وشواهد كلها لقوم نعموا فى الحياة بحظ يبعث إلى النفس الغبطة ولا يحز الفؤاد بلذع الألم .

وخرجنا فخفف عن النفس ما أحاط بنا من ضجة الحياة .

* * *

وذكرت مقبرة ميلانو وتمائيلها وأنصابها وشواهدا يوم ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٦ : إذ كنا نجوب صحراء القاهرة نؤدى للصبي الراقد فى مقابرها فرض الذكرى ، وندع عنده قطعتين من قوادينا الكليمين ، لعلهما أروح لثراه من الورد والزهر . أيهما أبلغ بحديث الموت وعظمته : تلك الجنة فى ميلانو ، أم هذه الصحراء المنقطعة تسرى فيها الأرواح بعيدة عن معانى الحياة الأرضية الوضيعة وإن جسمتها التماثيل ما جسمتها ، وإن جلت عن صفائح الحجر وجنادله من معانى الألم والرغبة والجلال ما جلت ؟ وأيها أبقى فى النفس أثراً : هذا التمثال من الحجر تراه اليوم وتراه غداً وتراه بعد سنين فإذا عواطفه لا تتجدد ، وإذا عينه الدامعة لا تجمد دمعها وعينه الجامدة لا تجود بدمعة ، أم هذه الدمعة الحية الحارة التى انسكبت بمرأى منك ومشهد ثم دخلت منك فى عالم الذكرى المتجدد ما تجددت حياتك ؟ قد تكون الدمعة الحية أبقى فى نفسك أثراً . لكنك أنت زائل كما زالت الدمعة التى رآيتها أنت وحدك . أما هذا التمثال من الحجر فقد تجسدت فيه عاطفة من العواطف هو عليها شهيد لكل من رآه ، وهو أبقى منك على الحياة وأبقى مما تسطره .

ومرت بمخيلتي إذ ذاك صورة من هذه العواطف المحزونة أثارها الألم المبرح زماً ، ثم ما زالت بها الحياة حتى استترت في قلوب أصحابها وصاحباتها تثيرها الأحداث وتكظمها المظاهر ، وحتى انطوت في عالم الذكرى عند من شهدوها ومن شغلوا عنها من بعد بلهو الحياة . مرت في مخيلتي صورة الجدة العجوز فقدت ابنها الوحيد بين بنات سبع ، ثم فقدت حفيدها الوحيد كذلك من هذا الابن ، فايضت عينها من الحزن حتى لا ترى هذه الآلام المكدسة حولها تم عنها نظرات بناتها وتنطق بها حال حفيدتها . ومرت صورة هذه الشابة الداهلة المنهدة في سوادها بين قبرين : قبر أمها الشابة وقبر وحيدها الصغير ، وأعمار الثلاثة ما تزيد على عمر شخص واحد يبكيه الناس أن ما يزال في الحياة له مطمع ، وهي في مقامها هذا خرج بها اليأس عن أن تجد حتى في الدعم عزاء . وصورة أم ذات ولدين انفصل عنها أبوها زماً ثم عاد إليهم وما كاد حتى اختطف الموت الاثنين جميعاً في عشرة أيام . وصورة . . . لكني ما كدت أبدأ أستعرض هذه الصور الحية ما تزال ، وأتحليها مصوغة في نحو تماثيل مقبرة ميلانو حتى هجم علىّ خيال برج هائل من الآلام الإنسانية مكدسة بعضها فوق بعض وهي تدمي دموعاً سخينة وقلوباً حرى وأفئدة مصدوعة وأكبداً مكلمة ، وفي كل قطرة من هذه الدماء تماثل ناطق بمعان تنفطر لها النفوس وتتعذب لمشهد الأرواح .

وفزعت لهذا المنظر ، وجاهدت كي أمحوه من أمامي ، فعدت إلى نفسي أحتسى بها من هول ما تلقى الإنسانية . وليس كالنفس حصن إليه يفرز العقل والخيال يدركان به من خطوب الوجود . وساءلت : أليس في الحياة إلى جانب هذه الصور الرهيب منظرها صور ذات بهجة ؟ أو ليس إلى جانب الحزن مسرة وإلى جانب الألم أمل ؟ إن الذين تدهمهم الهموم يجدون عنها في حكمة الحياة وفي لهوها عزاء . والحكمة أبلغ في عزائها . ومن الحكمة ألا نرى في الموت إلا طوراً من أطوار الوجود كالحياة سواء . أترى أنا لم نكن جزءاً من الوجود قبل أن نكون أناساً مثلما نحن في الوجود أناس ؟ ! بلى ! كنّا في الوجود مثلما نحن فيه وإذا كانت مشاغلنا في هذا الطور تحول دون أن نعرف ما سواه مما مررنا وسنمر به ، فليس ذلك إلا لأننا نتوهم أنفسنا قطب الوجود ودائرة مركزه . ولو أنا عدلنا في النظر إلى الكائنات جميعاً لرأينا أنفسنا ذرة منها تستحيل في شتى الصور ، ونحسب استحالتها وانتقالها فناء وموتاً . والمقابر على ذلك أعدل شاهد . فلو أن مقابر من ماتوا من يوم وجدت الإنسانية على الأرض ظلت مقابر ، لما وجد الأحياء لأنفسهم على وجه الأرض سكناً . لكن المقابر استحالت حياة في صور وألوان شتى . ونحن الأحياء على صغر كمنا وقدرنا نستحيل كل يوم

أحياء جديدة ، ونحيل غيرنا إلى ألوان من الحياة أو - إن شئت - من صور الوجود .
 ما لنا إذن نجزع من الموت ونهابه ؟ أم نحن في الحق لا نجزع منه لأنفسنا ، وإنما
 نجزع لما يحول بيننا وبين ما اعتدناه وألفناه ؟ والحياة وكل ما فيها عادة . ولعل سائر صور
 الوجود عادة كالحياة الإنسانية . ولعل للنبات وللجماد نوعاً من الحس بالحياة إن اختلف
 عن حسنا بها فهو أوفر عقلاً وأسمى حكمة . وهذه الحيوانات الأخرى التي تتشابه وإيانا
 في نوع الحس بالوجود ، لها من سليقتها ما يبعد بها عن الألم ، فهي لا تشعر به إلا إذا
 أصابها ما يسببه . فإذا انقضى عادت إلى مرحها في الحياة ومتاعها بها ، ولم تخلق لنفسها ما
 نسميه نحن عالم الذكرى نملؤه بالصور المثيرة للحزن والشجن .

ولعل هذا المعنى هو ما دفع أهل الغرب إلى أن يجعلوا من مقابرهم جنات ، ولأسباب
 آلامهم تماثيل محسوسة ، حتى إذا اعتادوا رؤيتها أنسوا إليها وارتبط بها خيالهم ، فلم يخلق
 لهم كل يوم سبباً للحزن والألم جديداً . فأما الحكيم الذي يؤمن بأنه بعض ذرات الوجود ،
 سواء استوى إنساناً أو انشعبت خلاياه في نواح عدة ، فليس في حاجة إلى تمثال يأنس به ،
 بل تهديه حكمته إلى تجنب أسباب الألم ما استطاع ، ليبقى له في الحياة المرح والمتاع .

فى البندقفة

البندقفة ! اسم ساحر جذاب لهاته المدينة التى أنبتها الماء ، كما ينبت الصخر والشجر ، وأنبتها فوق سبع عشرة ومائة جزيرة لا تتصل بغيرها من المدائن ، وليس فيها غير الماء وسيلة للنقل بين بعض جزرها والبعض الآخر مما جعل أهلها فى عزلة تميزهم من غيرهم ؛ وهى مع ذلك مهبط فن جميل يرجع فى تاريخه إلى عصور قديمة كانت البندقفة فيها ذات تاريخ مجيد فى التجارة وفى الحضارة وفى السلطان ، وكانت مرفأ من أكبر مرفأ بحر الروم ومن أشدها منعة وقوة .

لذلك كانت البندقفة وما تزال ساحرة جذابة تهوى إليها الأفتدة وتود أن تستمتع بها الأعين . وقل أن لم يقصد إليها مسافر فى إيطاليا . بل هى وجهة كثيرين يقصدون إليها من أقاصى العالم يشهدون فيها عظمة الماضى وسلطان الطبيعة وجمال الحاضر ، ويشهدون فيها صناعات بديفة دقيقة إن وجدت فى غيرها فهى لا توجد بهذا الإبداع ولا بهذه الدقة .

ولقد قصدت زيارتها عام ١٩١١ أثناء عودتى من باريس إلى مصر عن طريق سويسرا وإيطاليا . وكنت يومئذ فى آمال الصبا وزهو الحياة ، أحسب ما فى الحياة ملكاً لى أصرفه أكثر مما يصرفنى ، وأنال منه أكثر مما ينال منى . لذلك كفانى أن علمت وأنا بميلانو أن مياه الشرب مقطوعة من البندقفة ، وأنها قد تظل كذلك أياماً حتى عدلت عن زيارة المدينة الظمأى ناسياً أو متناسياً أن فى قد يجلب إليها من المياه المعدنية وغير المياه المعدنية ما لا يذر إنساناً ظمئاً . ومالى أزور مدينة ينقصها بعض أدوات الحياة مما قد أكون إليه بحاجة ، أو مما قد يعجبنى أن أحتاج إليه ! ولم أكن فى هذه السن قدرت مبلغ ضالة الإنسان فى الحياة وخضوعه لها ، ومبلغ قصر الحياة وسرعة مرها . لقد كنت معتزماً العودة إلى أوربا لإتمام دراسى بعد أشهر أقضيها بمصر . وبعد أشهر تكون أنايب ماء البندقفة أصلحت ، فلأعدل إليها فى طريقى يومئذ فى غير خشية ألا أجد ما قد يعجبنى أو أحتاج إليه .

وعدت فى أواخر سنة ١٩١١ إلى باريس ، ولكن من طريق مارسيليا . وأتممت ما ذهبت إليه وعدت إلى مصر فى سنة ١٩١٢ ولكن من طريق مارسيليا كذلك . وغامرت فى ميدان الحياة . ثم ما هى إلا أشهر معدودة ، ما هى إلا سنة ١٩١٤ حتى أعلنت الحرب بين دول

أوريا ، وحتى صار الذهاب إلى أوريا محفوظاً بالمصاعب . وشهدت البندقية من آثار الحرب ما شهدت غيرها من المدائن أو أشد من بعض المدائن هولا . ثم كانت الهدنة فالصلح فالحركة المصرية فالمشاغل التي تخضع الإنسان للحياة غير مختار . فلما قصدت إلى أوريا ألتمس في ربوعها الجميلة مصحاً أستشفى أنا وزوجي فيه من مصابنا زرت المدائن والأماكن التي عرفت شاباً والتي شهدتني وحيداً سعيداً بوحدي مملوءاً بقوة الأمل في الحياة والتسلط عليها ، فإذا بها تشهدني وقد تركت في نفسي كلوماً إن لم تضعضع من أملى وقوتى فقد خلطته من المرارة بما لم أكن أعرف في بدء الصبا وفي ميعة الشباب ، إلا أن يكون ذلك حباً في أن أستمتع من الحياة بكل ما فيها من حلول يغيب عن الشباب رحيق حلاوته ، ومن مر إن عرف الشباب لون مرارته فقد غاب عنه طعمه .

وكنت في هذه المرة شديد الحرص على أن أرى البندقية ولو انقطعت عنها مياه الشرب وقتك بالناس فيها الظماً . وفيما يجري بنا القطار من ميلانو إليها عاودتني في ابتسامة ذكرى سنة ١٩١١ . وهل تعاود الإنسان ذكرى الشباب في غير ابتسام ! وإن إخفاقاً في الشباب تغالبه فتغلبه لأكثر ابتساماً من مجد تنظر من عليائه إلى الحياة فلا ترى بعده إلا منحدرأ . فلما تخطى القطار اليابسة فوق الجسر الذي يفصل القارة عن المدينة الجزيرة ، انفسحت عن يميننا ويسارنا آفاق الماء المختلط عندها بالسماء ، وشعرنا بالبندقية تقترب ، وتصور الذهن « الجندولا » زورق البندقية ، وعادت إليه ذكريات ما سمع وقرأ عن كنيسة سان مارك وميدانها وعن قصورها الفخمة وعن شوارعها وطرقها المائية كلها والتي تخطر فيها الجندولات ذاهبات آيات .

في أى فندق تنزل ؟ هذا هو السؤال الذي يرد إلى خاطر المسافر أول ما يقترب من مدينة يريد أن يحط فيها رحاله . وذكرت إذ ذاك حديثاً جرى بيننا وبين بعض أصحابنا في لندن ومنهم من كان قنصل مصر في تريستا وزوجه . وقد تناول الحديث البندقية وآثارها . فلما عرفت زوج القنصل أنا قد نزور البندقية أشارت من بين آثارها إلى قصر قديم أصبح فندقاً باسم دانيلى ، ووصفت ما فيه من زخرف العمارة وصفاً مشوقاً ، فما لبثنا حين خرجنا من فناء المحطة وأحاط بنا رجال الفنادق أن نادينا برجل « دانيلى » ناولناه متاعنا فوضعه في جوندلته ، ثم أعاننا حتى نزلنا إليها ودفع بها في القنال الكبير الذى يقسم المدينة شطرين كما يقسم السين باريس والتمس لندن ، وكما سيقسم النيل القاهرة عما قريب .

تحل الجندولا في البندقية محل العرب في سائر المدائن ، وكما جنت الأوتوموبيلات والتراموايات ووسائل النقل الميكانيكى على العربات بجيادها المظهمة ، فقد بدأت الزوارق البخارية والسفن البخارية الكبيرة تجنى على الجندولات في البندقية ، وإن كان أهلها لا يزالون حريصين على الاحتفاظ بها احتفاظاً بطابع قومي كان رمزاً لهم كما يرمز لمصر ببعض آلهتها القومية . لكن الحضارة الحاضرة تجنى على الآلهة وتجنى على العربات والجندولات في غير رحمة باسم التقدم والعلم . لذلك بدأت الجندولات الفاخرة تختفي وتحل الزوارق البخارية الجميلة السريعة محلها ، ولم تبق إلا الجندولات العادية المعدة للإبحار وبعض جندولات احتفظ بها أصحابها أثراً نفسياً من آثار الماضي .

وتمتاز الجندولات على غيرها من الزوارق بأنها سوداء اللون طويلة ضيقة ترتفع على مقدمها ومؤخرها عمد من خشب مزخرف ينتهى باستدارة مستعرضة كأنها رأس الأفعى الحارس الذى يرسم على قبور قدماء المصريين . ومجاديف الجندولا ليست متصلة بها بل يمسكها النوق بيده ويعتمد على التجديف بها على جانب الزورق . وأهل البندقية صغاراً وكباراً ذوو مهارة في تسيير جندولاتهم وفي تفادى تصادم بعضها ببعض في أضيق الطرق وفي أخرج المنعرجات .

وسارت بنا الجندولا في القنال الكبير تقوم على شاطئيه قصور قديمة كما تقوم أيضاً منازل قديمة ، حتى كنا عند جسر رياتو يتخطى الناس القنال الكبير فوقه . وجسر رياتو أو كبرى رياتو واحد من أكبر جسور البندقية الكثيرة التى تعد بالمئات . وجسور البندقية - إلا الصغير منها - عقود مقوسة من الحجر مما يضطر الناس إلى الصعود فوقها بدرج ثم النزول إلى الشاطئ الآخر بدرج كذلك . فأما جسر رياتو فله من الامتياز على ذلك أنه محاط من جانبيه بعمد مزخرفة عقد فوقها جسر آخر لا يرتفع إليه أحد . ومن بعد هذا الجسر بقليل استدارت بنا الجندولا في طرقات ضيقة اختصاراً للطريق . وفي هذه الطرق الضيقة يتنادى المجدفون عند كل منعرج بصوت منغم لحرفى « هو » كما ينبه سائقو الأوتوموبيلات بنفيرهم عند كل انحراف أو تقاطع في الطرق والشوارع .

ووصلنا « دانيلى » وارتقينا من الجندولا إلى سلمه النازل فى الماء ، واخترنا غرفتنا : إنه لقصر منيف . وهو قصر من طراز القصور القديمة ، صنع أكثره من المرمر ، وزينت نوافذه بزجاج ملون كزجاج الكنائس وبعض المساجد . يقابل الداخل من الباب بهو متسع يفضى إلى غرفة استقبال أكثر من البهو سعة وأدق عمارة . ولم نطل المكث فيه ساعة وصولنا ، بل

ما كدنا نزيل عنا غبار السفر حتى خرجنا والنهار في أخرياته نجتلي منظر الأدرياتيك ، ونرى بعيداً عن كبرى جزائر البندقية جزراً أخرى منشورة تقوم فوق بعضها كنائس تظهر للنظر قبائها ، وتبدو على البعض الآخر مساكن لا تستثير تطلع الناظر إليها . واستندنا إلى يميننا وتخطينا جسرين بنيا أمام قصور أمراء البندقية الأقدمين ، وانعطفنا يسرة فإذا بنا أمام ميدان سان مارك .

سان مارك ! الكنيسة الفخمة القديمة ، فخر البندقية وفخر العمارة البيزنطية ! وأمامها ميدانها العظيم تحيط به من جوانبه الثلاثة الأخرى عمارات فخمة كانت قصور الأمراء في الماضي ، ثم أزلتها الديمقراطية فجعلت منها قهوات وحوانيت بقيت أميرة قهوات البندقية وأميرة حوانيتها . وبإزاء الكنيسة عمد ثلاثة من الممر الأحمر الدقيق ، وعلى مقربة منها إلى يمين الناظر إلى الكنيسة برج البندقية (Campanile) وإلى يسارها برج الساعة . ونسيت أن أذكر العمادين الحارسين واقفين على مقربة من الشاطئ قبل دخولك إلى ناحية الكنيسة فالميدان . أليست هذه مجموعة في فن العمارة والنحت لا تضاهيها حتى مجاميع بيزا وفلورنسا ! ووسط هذه المجموعة الفخمة وفي هذا الميدان الفسيح المرصوفة أرضه بالرخام وبين هذه القهواى والحوانيت يخطر حمام سان مارك أسراباً وقد وقف عنده الناس يلقون إليه بالفتات طعاماً وهو إليهم مطمئن ولهم أليف .

أليس حمام سان مارك حراماً على كل يد قاسية ! . وقد كانت الحكومة تطمعه في الماضى وأيام الأمراء وتزل بمن يعتدى على أية حمامة منه أشد الجزاء . أما اليوم فقد حل شعب البندقية محل الحكومة ، وانعقدت بينه وبين حمام سان مارك الأزرق اللون في شيء من الخضرة التي تكسوه جمالاً وبهجة ، ألفة وصدافة ، حتى صار الاعتداء على هذا الطير الرقيق الأليف اعتداء على شعب البندقية يدفعه بما يدفع به العدوان على فرد من أفراد أو جماعة من جماعته .

الوقت مساء والنهار ولى وليس إلى اجتلاء جمال الكنيسة والعمد والأبراج سبيل . فلندرك إذن في الميدان دورة قبل أن نعود إلى الفندق . وحذار أن تعثر القدم بإحدى حمامات سان مارك أو أن نزعجها . وليس ذلك احتراماً لعواطف شعب البندقية وكفى . ولكن جانب الخير في النفس الإنسانية يتغلب ما وجد مظاهر الخير في الجماعة بادية . والقسوة والشر لا يملكان الفرد إلا إذا اخفى المثل الصالح من أمامه . والقاسى يهيج الدم ما رأى الدم ، لكنه إن أحيط بعواطف الخير فقد حق على قسوته أن تنكمش حتى تتلاشى . فأما رجل

الخير فيقطب للقسوة جبينه ولا يلجأ إليها إلا كارهاً . وهو ما رأى الرفق والبر والرحمة مطمئن لها فرح بها مغتبط بالحياة وبالنهل من وردها أشد الاغبط .

ودرنا في ميدان سان مارك ثم عدنا إليه بعد طعام العشاء ، ثم عدنا إليه في الغد وفي الأيام التالية إلى حين غادرنا البندقية ونحن نجتلى منه في كل مرة جديداً . ذلك أن هذا الميدان قلب المدينة ، معرض عام لكل صناعتها وتجارتها وفنها ، وفيه معرض لكل ما تستطيع البندقية أن تجلوه للسائح من صناعة إيطاليا وتجارتها وفنها . وأشد ما يلفت النظر في الجوانب الثلاثة التي تشرف عليها الكنيسة من صدر الميدان دنتلا البندقية ، والزجاج المصنوع فيها ، ونقش الجلود نقشاً فنياً . وما أحسب سيدة من السيدات ذهبت إلى البندقية إلا سحرها هذا الميدان عن أن تشهد شيئاً غيره ، لولا ما يكلفها ذلك من نفقة باهظة قد تجد في سائر كنائس البندقية وجزائرها المختلفة ملجأ للفرار منها . والحق أنهم يعرضون الدنتلا في صدور حوانيتهم عرضاً يهوى إليه لب الرجل ، وما بالك بلب المرأة ! ولست في هذا الصنف خبيراً حتى تستوفى دقائقه وإن اضطررت للوقوف مع من يعرف هذه الدقائق ، وإن وجدت في ابتسامات الباعة والبائعات وفيما يجري من الحديث عن هذه الحلى التي تزيد الجميلة جمالاً في كل أجزاء جسمها ما جعلني أصغى لهذا الحديث بكل سمعي . فأما النقش على الجلد فكان يجذبني مباشرة ومن غير واسطة . وللكتب وجلودها ، كعوباً وزوايا ، فضل في ذلك غير قليل . فكثير مما وقع في يدي منها أثناء مطالعاتي بالمكاتب المختلفة كان من مخلفات عشاق زخرف وقاء الكتب ، وكان ذلك آية من آيات فن النقش على الجلد . لكن أهل البندقية لا يعرضون كتباً في صدور حوانيتهم ، يعرضون محافظ كبيرة ومحافظ للجيب وشبابش للسيدات كلها إبداع أي إبداع . ولعل السائح أقل ما يكون تفكيره في كتاب مزخرف التجليد ليهديه لزوجته أو لصديقه أو لصاحبه . ولشبشب مزخرف الجلد تخطر به فائدة على سجاد عجمي وثير أبعث للوحى وأنفذ إلهاماً من كثير من الكتب المتقنة التجليد .

وصناعة الزجاج مزدهرة في البندقية أي ازدهار . ولقد أتيح لنا أن نرى معارض هذه الصناعة ، وأن نرى كيف يقومون بها . ويكنى أن تقف إلى جانب العاملة التي تصنع الفيسفساء لتعجب لأناتها وصبرها وهي تأخذ قطعاً صغيرة من الزجاج المختلف الألوان ، ثم ما تزال تضع كل لون في المكان الواجب أن يوضع فيه حتى تكون الصورة التي تنتج من ذلك في بهاء الصورة التي يراد رسمها . ألوف وألوف من هذه القطع يوضع بعضها إلى جانب بعض على لوح أبيض كما يضع النقاش ألوانه . لكن النقاش يستطيع أن يغير وأن يمحو وأن يصلح الخطأ .

فأما الخطأ في نقش الفسيفساء فيجب أن يزال أولاً . وإزالته ليست أقل دقة من وضع الصواب من أول الأمر ، أو من وضعه مكان الخطأ . وإذا كانت صناعات الزجاج الأخرى لا تحتاج إلى ما تحتاج إليه الفسيفساء من عناء فهي ليست لذلك أقل دقة ولا بهجة .

وفي الحوانيت الفسيحة على جوانب الميدان الثلاثة صفت هذه الصناعات ، وصفت إلى جانبها غيرها مما ترى في إيطاليا كالتماثيل والصور . فإذا دخلت ألفت معارض واسعة تقع العين فيها على ما تحار فيه إن كلفتها الاختيار منه . ولعل هذه الحيرة هي التي تنقذ كثيرين من باهظ النفقة ، إذ يعدون أن يعودوا ، ثم تشغلهم مناظر البندقية حتى يغادروها . وفي ضحى وصولنا إلى البندقية صحبنا دليل دخلنا وإياه إلى كنيسة سان مارك . وسان مارك هو القديس الحارس لمدينة البندقية ، نقل أهلها رفاته إليها من الإسكندرية في سنة ٨٢٩ بعد الميلاد وبنوا الكنيسة فوق القبر الذي ثوى فيه سنة ٨٣٩ ثم أعيدت عمارتها بعد ما التهمت النيران في سنة ٩٧٦ وجددت على الطراز البيزنطي في منتصف القرن الحادى عشر . وهي شرقية العمارة ككثير مما في البندقية ، ولها قباب خمس شبهها بقباب المساجد غير قليل . والقباب الأربع التي تحيط بالقبعة الوسطى تقوم فوق بناء على صورة صليب متساوية أضلاعه . وأرض الكنيسة وسقفها وجدرانها بدائع فنية ليس لها في غيرها مما رأيت من الكنائس نظير . نقشت الجدران والسقف بالصور المقدسة نقشاً بالفسيفساء والذهب والمرمر ، فكانت كل صورة ، بل كل قطعة ، آية في جمال الفن ودليلاً على الدقة والأناة . وإذا كان ما شهدنا من صناعة الفسيفساء وما تحتاج إليه من صبر ودقة قد التجأ إليه الذين زخرفوا سان مارك فما أصبرهم حباً في الفن وابتغاء لوجه الله . وإن ما تشهد به سان مارك وما تشهد به كنائس البندقية الكثيرة ليقوم دليلاً على أن الإيمان وحده هو القوة التي تسمو فوق الطبيعة وفوق العقل وفوق التصور والتي تتم المعجزات ، وعلى صدق كلمة الإنجيل أن لو ملأ الإيمان قلبك وقلت لهذا الجبل انتقل من مكانك ينتقل . فهو الإيمان بالله وبأوليائه الذي دفع أولئك الفنانين ليتموا في سان مارك وغير سان مارك بدائع في الفن معجزة . وهو الإيمان بالعلم وسلطانه الذي أخضع للإنسان قوى الطبيعة التي لم تكن تخضع من قبل للإنسان ولا لغير الإنسان .

وعلى مثال المساجد وغير المساجد من آثار العمارة الشرقية تحيط بالكنيسة من خارجها وتنتشر في داخلها عمد من الرخام الدقيق الصنع يبلغ عددها خمسمائة . ويعتلى باب الكنيسة المزخرف أجمل الزخرف بالفسيفساء المذهب تماثيل أربعة جياد من البرنز المذهب ، كذلك

ذكر الدليل أن أحد دوقات البندقية جاء بها من القسطنطينية في أواخر القرن الثالث عشر فزين بها هذا المكان المقدس ، كما زعم أن نابليون أخذها أثناء غزوه إيطاليا ، ثم أعيدت من بعد ذلك إلى حيث هي اليوم مثال حسن ودقة في الصناعة .

إلى جانب كنيسة سان مارك يمتد قصر دوقات البندقية مطلاً من جانب على مدخل ميدان سان مارك ، ومن الجانب الآخر على مياه الأدرياتيک . ودوقات البندقية هم حكامها أيام كانت جمهورية مستقلة تصل الشرق بالغرب وتتأثر دائماً بالحضارة الغالبة . ولقد ترك الشرق فيها من الآثار الباقية أكثر مما ترك الغرب . فكنيسة سان مارك شرقية العمارة والزخرف . وأكثر كنائس البندقية وقصورها شرقية مثلها . ومن بين هذه القصور قصر الدوقات قام به أمراء البندقية عندما كانت البندقية جمهورية مستقلة ، ثم أصبح اليوم متحفاً تعرض فيه النقوش والصور والتماثيل كما تعرض في غيره من قصور البندقية القديمة ، وكما تعرض في كثير من القصور في فلورنسا وفي روما ، في هذه القصور التي كانت في الماضي متاعاً لأمير أو لحظية ملك ، ثم جعلتها الحرية متاعاً مشاعاً للشعب كله يجتلي فيه من آثار الفن والعلم ما كان حراماً على الشعب أيام الأثرة والاستبداد ، أيام كان الملوك ورجال الدين قد عقدوا الخناصر لإذلال الشعب واستغلاله . ما أفخم قصر الدوقات هذا ! يتخطى الإنسان بابه الخارجى إلى فناء فسيح يصعد بعده على سلم من الرخام إلى ديوان يطل على الفناء ، ثم يدخل إلى غرف القصر فيرتقى إلى الطابق الأول سلماً عريض الدرجات ما يكاد ينتهى منه حتى تقابله غرف القصر الفسيحة تغطى جدرانها أبدع النقوش والصور . وإن أنس لا أنس من غرف القصر غرفة مجلس أمير البندقية ، مستطيلة تزيد على خمسة عشر متراً في العرض وأربعين في الطول وقد صفت فيها المناضد كما تصف في مجالس الشورى . وفي صدر المكان منضدة رفيعة كانت مجلس زعيم الأمراء . دع عنك التاريخ وما كان الأمراء يصنعون ، وقف محدقاً إلى هذا الجلال والجمال في الفن والعمارة حتى يبلغ منك الإعجاب حد الدهول . ويقول صديق كان معنا وهو يحقق معجباً إلى الصور لتستوقف نظره صورة نقش في السقف تمثل البندقية جالسة على عرش العالم لتشيع فيه العدل والسلام : « أليس هذا بعض فضل الاستبداد ، كما أن الكرنك والأهرام وأبأ الهول في مصر بعض فضله ؟ ! وإذا استمتعت الشعوب بما تستمتع به اليوم من بدائع آثار الفن فهل ذلك إلا أن الاستبداد كان خيراً في عصر من العصور ؟ ! » ثم يقف هنيهة يراجع فيها نفسه ويذكر أن روح الجماعة الحرة قد شادت مثل ما شاد المستبدون ، وأن آثار فن اليوم ليست أقل

روعة وجلالا من آثار فن الأقدمين .

وفي جانب القصر المطل على مياه الأدریاتيك والذي يحتلى الجزر القرية ، بهو تبلغ مساحته ضعف مساحة غرفة المجلس ، لعله كان ملهى لأمرء البندقية وملعباً للكواعب الحسان من بنات المدينة بالجزيرة ممن ترك جمالهن الرفيق المكسال في نفس دافنشي وتسانو وروسو وغيرهم من كبار الكتاب والفنانين أثراً تجتليه اليوم في مخالقاتهم الخالدة على الزمان . وهبطنا نريد الخروج ، فاستوقفنا أحد الحراس ليرينا جانباً مظلماً من جوانب القصر المنير . ذلك جانب السجون التي كان يسجن فيها المتهمون السياسيون : غرف ضيقة لا ترى شمساً ولا يتجدد فيها هواء ولا يدخل أكثرها النور : وتدل وحشها على سواد نفوس المستبدین الطغاة . وفي إحداها نافذة ضيقة تطل على جسر أطلق عليه أهل البندقية اسم جسر الدموع ، ويرى السجين من خلالها نور الشمس وهواء الحياة وموج البحر . في هذه الغرفة كان يقضى المتهم السياسي الليلة السابقة على قتله فتذرف عينه الدمع . وما أحسب الظلمة كانوا يريدون بنقله ليرى بعض آثار الحياة أن يزودوه في لحظاته الأخيرة بشيء من المتاع ، وإنما كانوا يريدون به أن تزيد حسرته فيزداد بذلك عذاباً . وقلب المستبد يستمرئ عذاب المظلوم ، كما يستمرئ القلب الحر البر والرحمة .

وعدنا آخر النهار إلى ميدان سان مارك من جديد . ما أشد سحر هذا الميدان ! إن الزمن الذي يكفيك لترى البندقية كلها خلا هذا الميدان لأقل من الزمن الذي تحتاج إليه كي تحيط بكل ما احتواه . أليس هو قلب البندقية ومجتمع أهلها والنازلين فيها ؟ أو ليست فيه أبداع آثارها ؟ عدنا إليه آخر النهار إذّا معترمين أن نصعد إلى أعلى برج البندقية . وبرج البندقية ليس مستديراً كالبرج المائل في بيزا ، بل هو مربع كبرج فلورنسا . وهذا البرج أنشئ مكان برج قديم اختلت عمارته في سنة ١٩١٢ . لذلك ترى فيه من آثار حضارة هذا العصر مصعداً يرتفع بك إلى أعلاه دون أن تتجشم ارتقاء مئات درجاته مما يصد عن غيره كثيرين ممن تقدمت بهم السن أو غدر بهم المرض . وتبدت شواطئ إيطاليا أمام ناظرنا ونحن فوق البرج خاشعة متواضعة . وتبدت كذلك أعالي البندقية بعد أن كانت تتيه كبراً بارتفاعها ، فهذه قباب سان مارك تلمع أشعة الشمس المتدرجة إلى المغيب فوقها فتندر رخامها متورداً برهة ، ثم ما تلبث القصور المحيطة بالميدان أن تحول دونها ، وهذا برج الساعة وقف فوقه تمثالان يدقان على جرس هائل عدد ما يتقضى من حياة الوجود من ساعات . وهذه قباب الكنائس الكثيرة المنثورة في البندقية مدينة

الكنائس . وهذه قصور الأمراء والفنادق المصطفة على رصيف سكيغولا . وثمة الحديقة العامة في آخر المدينة . وثمة ربوع أهل البندقية ومنازلهم وراء الفنادق متواضعة منحدره في الماء .

بدأ الهواء يهبُّ بارداً حين بدأت الشمس تنحدر إلى المغيب . وبلغ من برودة الجو ، وما نزال في منتصف أكتوبر ، أن ذكر الناس زمهرير الشتاء . وظن عامل المصعد أن لابدَّ أن الناس هابطون اتقاء الهواء اللاذع ، فصعد إلينا وفتح باب مصعده على مصراعيه وقصد جماعة أصابتهم الرعدة يريدون الهبوط ، لكنهم ما كادوا يقتربون من المصعد حتى عاودهم التردد ، فعادوا يشهدون منظرًا جلَّ عن كل وصف : منظر الشمس المنحدرة نشرت حولها أبهى الصور والألوان . وعلى ركن ضيق من المكان يحمله الزجاج من لدغ الزمهرير اجتمع العشرات من الحاضرين يجاهد كل يفسح لصاحبه كي يحتل مشهداً قلَّ أن يتاح له اجتلاء مثله بروعة وجلالا وجمالا وسحراً . ونسينا البندقية والبرج . وسان مارك ، ونسينا كل شيء إلا هذه الشمس التي صبغت الوجود نوراً وناراً ودمماً ، وصرنا لا نسمع إلا آهات الإعجاب تنطلق من صدور الحضور جميعاً بالرغم منهم . وظل عامل المصعد زمنا ينتظر هؤلاء المرتعدين بقارس البرد المأخوذين بروعة المنظر ، حتى أتاحت الرعدة له بعض أفراد هبطوا معه ، ثم عاد إلينا وخرج من مكانه يشاركنا في عبادة الجمال . فلما آن للبحر أن يبتلع في جوفه ملك النهار هبطنا إلى البندقية والنفوس ذاهلة والوجوه واجمة والقلوب خفاقة بروعة المشهد العظيم .

أرأيت كيف خلق فن الإنسان وصنعه من هذا المكان الضيق ، سان مارك ، عالماً فسيحاً يستوقفك أياماً ، وهو جدير بأن يستوقفك أسابيع بل شهوراً ؟ ! على أن بالبندقية غير ميدان سان مارك وقصور الأمراء كثيراً من الكنائس والمتاحف وما شادت العمارة مما يجذب السائح إليه .

ولقد زرت من ذلك ما اتسع وقتي لزيارته . والوقت في البندقية ليس يتسع لكل ما يتسع له في غيرها . وكيف السبيل إلى مثل سرعة الأوتوموبيل في مثل هذه الطرق المائية الكثيرة التعاريج ! وليس ذلك وحده ما يضيق من الوقت . بل إنك لتشعر أحياناً إذ تجوب بعض أحياء البندقية بانقباض يزهلك في قضاء الوقت بها . فأكثر طرقها ضيقة غاية الضيق ، حتى لتسائل نفسك كيف يعيش أهل هذه المنازل المحرومة ضوء الشمس الغائصة من أجيال وأجيال في الماء الراكد النتن الرائحة وأنت مضطر لكي تصل إلى بعض المتاحف والأماكن

الفخمة إلى اجتياز هذه الطرق . وهي لذلك تصدك عن المضي في كثير من زيارتك ، وتضطرك أن تذهب إلى بعض الجزر كليلو أو جويدكا تطلب فيها هواء أصح من هواء البندقية . على أن الأثر الذي يبقى في نفسك من المدينة الجزيرة هو ميدان سان مارك ؛ هو هذه البدعة الفنية التي جمعت الكنيسة والقصور والميدان والحمام والدنتلا والزجاج والجلد المنقوش والتماثيل ، والتي جعلت من البندقية متحفاً يمتاز على المتاحف كلها برشاقته وظرفه ، كما تمتاز هي على المدائن كلها بطبيعة موقعها وعجيب تكوينها مما يجعلها ساحرة جذابة تهوى إليها الأفئدة . وتود أن تستمتع بها الأعين .

ولعل للبندقية سحراً آخر لمحته عشية سفرنا منها ؛ إذ كنت بالفندق على مقربة من سيدة أمريكية تتحدث إلى بعض خدمه بلهجة فيها من رفع الكلفة غير قليل . وبصوت كأنه متعب من الحياة ملول لما فيها . بعد أن فاض بصاحبته المتاع بها حتى سئمت كل متاع ، وحتى تضعضت أعصابها عن أن تطمئن لما اعتاده الناس لوناً للحياة ، فهي قد زارت البندقية مرات كما زارت غيرها من البلاد والممالك . لكن بها إلى ليل البندقية هوى لا تجد في نفسها مثله لليل مدينة غيرها . ليل البندقية الذي تسبح فيه الجندولات والزوارق بأنوارها الضئيلة المستحبة فوق لجة لا هي بالعباب يضطرب موجه ولا بالراكذ والتي تميل لذلك بمن فيها ميلاً رقيقاً يدع الخيال يذهب في مسارحه ناسياً ما استطاع الضجر والألم ، وتهزم بحنان كأنها مهد الطفل تترق في هزه يد أم روم . فتنم في نفوسهم أنات مكظومة كانت تنفجر في الضوء الصارخ وفي الرجة العنيفة : إلى هذا الليل تهوى السيدة الأمريكية وقد يهوى كثير غيرها . وهذا الليل الساحر لا يستمتع به الذين يقضون ساعات نهارهم في التنقل بين المتاحف والكنائس وفي مشاهدة ما خلف ماضي البندقية العظيم من تراث خالد ، والذين يقتضيهم الليل نوماً يستعيدون به نشاطهم لجلاد الأيام التي تليه .

لم أعرف إذن سحر ليل البندقية ، ولم أعرف كذلك كثيراً مما فيها . أنى لطاقة الإنسان أن يجتلي في أيام روح مدينة تضم ألوف أمثاله ، وتضم إلى جانب هذه الألوف حياة ألوف من عصور الماضي ترك كل في روح المدينة من أثره ما تحتاج معرفته إلى انقطاع ودراسة . فليس ميدان سان مارك وحده ، وليس ليل البندقية الذي يهز في رفق ملل من أضنت الحياة أعصابهم ، وليست الكنائس والجزر وما بينها من طرق مائية ، هي التي تجذب الناس إلى البندقية أو إلى أية مدينة سواها ، وإنما يجذبهم إليها روح المدينة القديم الباقي على العصور ، والذي يجعلنا نشهد في لحظة ما أتمه أمثالنا في أجيال وقرون .

بين صيفين

غادرنا البندقية إلى تريستا في الرابع عشر من أكتوبر ، وأبحرت الباخرة حلوان بنا غداة ذلك اليوم ، ورسّت بنا في الإسكندرية بعد مسيرة ثلاثة أيام كان البحر خلالها مصقول الصفحة ، والهواء رخاء ، وكل شيء على ما نود ونهى . وانخرطنا من جديد في حياتنا العادية بنفوس هادئة وقلوب مطمئنة ، يعاودها الأسى بين حين وحين . فترى في مثل هاته الرحلة لوناً من لذة الحياة إلا يكن فيه ما يجنب النفس الألم ففيه ما يجيب إلى النفس الحياة . وتركت رحلتنا في نفوسنا أثراً جعلنا نردد دائماً أنا متوجهون إلى أوروبا كل صيف . وتقضت الشهور ، وأقبل الربيع يحمل في أردانه حرارة الصيف ، فبدأنا نفكر في رحلته . وتشاورنا في الطريق التي نسلك ، واستنصحننا بعض أصدقائنا ، ثم استقر بنا الرأي عند الذهاب إلى الآستانة ورومانيا دون أن نضع خطتنا لما بعدها . ذلك لأنني أعتقد أن خير السياحات ما يترك فيه الإنسان الخطة للظروف ، فلما كنا بعاصمة الإمبراطورية العثمانية التي لم تبقى عاصمة كما لم يبق لآل عثمان ملك ، ولا للأتراك إمبراطورية ، فكرنا فيما عسانا نفعل بعد وصولنا قسطنطة . وتشاورنا وأصدقائنا الذين لقينا بالآستانة ، فرسموا لنا طريقنا إلى بخارست فبودابست فقينا . قلت : إذن فليكن هذا طريقنا إلى باريس . ولو أن الوقت انفسح أمامي لكان لبرلين نصيب من رحلتي . فلما كنا بفينا ذهبنا بعدها إلى براج فباريس ، واستغرقت رحلتنا هذه من ٣٠ أغسطس إلى ٣ نوفمبر سنة ١٩٢٧ كانت حالنا النفسية أثناءها في طمأنينة سمحت لي بأن أسجل كثيراً من الملاحظات في شؤون شتى وقفت عليها ، وأشهد أن سفرنا وقناصلنا ورجال السلكين السياسى والقنصلى كانوا جميعاً ذوى عون صادق فيما وقفت عليه من ملاحظات سواء بما أبدوه لي من معلومات كنت أسأل عنها ، أو بما مكنوا لي من الاتصال بأهل البلاد التي مررت بها ممن لم أكن لأتصل بهم لولا حسن وساطة رجالنا المحترمين الذين شعرت لهم في نفسى بتقدير واعتراف بالجميل لن تنسيه الأيام . وهذه الرحلة وما وقفت عليه خلالها من ملاحظات هي موضوع الكتاب الثانى .